الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
منشورات الاختلاف

خيال ساخن

رواية

محمد العشري

خیال ساخن

بسم الله الرحمن الرحيم

خيال ساخن

رواية

محمد العشري

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى
1429هـ - 2008م

ردمك 978-9953-87-282-7

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 ـ 785108 ـ 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574 ـ 13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الالكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

الإهداء 7

مفتتح 9

الأمل 11

الهُيام 37

النافذة 63

العناق 83

الإهـــدَاء

«إلى:

الأرواح الهائمة في الكون

بحثاً عن جنّتها الخاصة»

مفتتح

.. المحبون وحدهم يلمسون بقلوبهم جوهر الأشياء..

.. والهائمون حبّاً ينهلون من الدنيا سعادة الحياة..

.. إليهم جميعاً حبّاً بحب..

الأمل

في حديقة البيت، رأيت كتلة من شجرة متحجرة، باقية من الأزمنة الجيولوجية البعيدة، وتقلباتها التي رسَّبت محاليل الرمال المتصخرة في خلايا المادة الحية، تاركة بقايا الكائنات العملاقة، كحفريات وعناثرة تدل على الحياة القديمة، كتلة صخرية مغبرة، تحتفظ بتفاصيل الحياة النباتية، تبدو كشجرة لا ينقصها إلا الماء، عثر عليها تاجر الملال، في رحلة له في الصحراء، ساعده رفيقاه البدويان في وضعها في صندوق عربته، زرعها بين الحشائش في الممر الأمامي بحديقة بيته، ذي الأشجار الضخمة، الواقفة في شموخ على الجانبين، كل آن لآخر يقف أمامها مفكراً، يمرر بصمة سبابته على عروقها الحادة، فتلين تحت لمسته، يعيد إليها الذكرى وهو يستشعر الحياة التي ترقص، وحولت أخضرها إلى جفاف وتحجر، فهناك في الزمن البعيد حيز بدت محاولات الهواء لتحريك أغصانها وفروعها مستحيلة، توارت في باطن الأرض وانطمرت إلى أن تغيرت الدنيا ومن عليها، أزاحت أعاصير الرياح الرمال التي تغطيها، من جديد أطلّت على المكان الذي ولدت فيه، لم تجد غير الفراغ يحيط بها، والشمس تلهبها بنارها، حتى وجدها ذلك التاجر في مكان ليس لها، فلا طيور تحط على رأسها، لا أغصان بأرواق خضراء ملتصقة بها، لا حيوانات تتجول في حضورها، ولا حشرات تتسلق ساقها، نقلها التاجر إلى بيته، بين أبناء جيل آخر من الأشجار الحية، وأحفاد تنمو تحت ظلها، على العشب الأخضر الندي، دبت الروح من جديد في لحائها، وتسربت إلى لُبِّها المحفوظ في تابوت صخري.

وفي ليل معتم، هرب فيه القمر من مكانه، سُمعَ صوت يقترب منها، شاهد آخرون من سكان الحي حيواناً غريباً يقفز في الممر، ذا أرجل رفيعة، وجسمٍ نحيلٍ، يحمل فريسة تئن بين أنيابه، يعدو تجاه الصخرة، متخطيـًا البوابة الحديدية المفتوحة، أتى بها ليأكلها فوق الصخرة في ذهول ممن يراه، أصبحت الصخرة مرقده، انحصرت دنيته في نباتات الحديقة من حوله.

الكسل والتفكير العميق في أمر ما يَشغل ذهن ذلك الحيوان، جعلاه يكتفي أن ينبش مخالبه بين الحشائش ليندفع الماء إليه، يشرب ويمدد رقبته أمامه، دون مبالاة بالرعب الواقع في قلوب أصحاب البيت، المحبوسين في داخله.

بعد أيام نسى اقتناص الفرائس، استوطن عندهم، اكتفى بأكل الضفادع، والفئران، والحيوانات التي تضلّ طريقها وتقع بين قدميه، كما هجر المحبوسون في رعبهم الدنيا، وانكمشوا داخل الجدران، بات عليهم أن يبحثوا عن وسيلة تخلصهم ممن قطع عليهم الطريق.

* * *

بينما الحال هكذا، مَرَّ ساهر من أمام البيت، ظن أن الحيوان مُربّى لحراسة سكان البيت، أو أن سيركاً ما على وشك أن يبدأ عروضه، دفعه الفضول إلى الوقوف طويلاً، مرتكناً بكوعيه على حافة السور، غازل مبتسماً قوة الحيوان النائمة في استسلام ولا مبالاة له، أتى بحركات عشوائية في الهواء، وأصوات مختلفة شكَّلها بلسانه وشفتيه، وجَسّمَها بيديه.

بدأت الحقيقة الغائبة تتكشف أمامه، ظهرت خطوطها الأولى في الأيدي الممتدة إليه من النافذة العلوية، ورؤيته وجه البنت الصغيرة

التي تتمسح بالزجاج، وهي محمولة على يد امرأة مذعورة، تلمّ لها شعرها الأسود الطويل بيدها الحرة.

تأكد أن الحيوان الغريب، تقترب هيئته من السلعوة التي سمع عنها، ولم تقع عيناه عليها من قبل، يُرهب أهل البيت، وأنهم في انتظار من ينجدهم، ويدفع عنهم أنياب الافتراس، حين أتاه صوت واهن من الغرفة الملاصقة للبوابة الحديدية التي يقف أمامها، وقف ينظر في عينيه، طالت وقفته، لاحظ أنه لا يبرح الصخرة، ولا ينام، دائم الترقب والحذر، انشغل به وأصابعه تعبث بشعر ذقنه النابتة، التي لم يحلقها منذ يومين، قرر أن يدخل معه في عراك، فها هي فرصته في أن يعجن فعله بدهائه، أن يرتدي قلادة الشجاعة على صدره، أن يثبت لزوجه أنه لم يكن خائباً في سعيه وراء الدور المناسب له في الحياة، وأن تركه وظيفته الرتيبة في الجهاز الحكومي، من أجل أن يجد ذاته المنطلقة، لم يكن مجرد خيال، أو وهم سيطر عليه، فقد كانت لديه رغبة في أن يعمل مدرباً للأسود والنمور في سيرك المدينة، لكنه لم يجد الفرصة المناسبة، وعناد أبيه معه جعله يمتثل له، ينتظم في عمل روتيني، يستهلك منه النهار بلا فعل يقنعه بجدوى ما يفعل.

* * *

مطوحاً رأسه يميناً وشمالاً، عاصراً تفكيره، يستجدي فكرة يبدأ منها، دلف من البوابة، ومنها إلى الغرفة الصغيرة، وجد فأساً في ركنها، رأى رجلاً هرماً متكوماً في رعب، سأله وهو يخفف من خوفه:

- ماذا بك يا شيخ؟!.

- السلعوة تحبسني هنا.

جلس إلى جانبه، بدأ يشد أطراف الحديث في الاتجاه الذي يريده، باعثاً الطمأنينة في قلبه، أراد أن يعرف كل التفاصيل عن الوحش الراقد في حديقة بيت على أطراف المدينة، تاركاً مجاهل الجبل خاوية منه، استمع إليه وهو يحاول أن يتماسك، مشيراً بيديه المرتعشتين تجاه الحديقة.

* * *

قَدّرَ المسافة من الحجرة إلى الصخرة، اختمرت في رأسه خطة، أمسك الفأس بقبضته، وبدأ في التنفيذ.

* * *

أصحاب البيت في الداخل لم يتوصلوا إلى طريقة للخلاص، وكلما مر الوقت بدوا مهمومين ومشلولين عن إمساك شيء ينجدهم، اتجهت قلوبهم إلى السماء وهم يسترجعون في ذاكرتهم ما اقترفوا من أفعال، ندموا على الأشياء التافهة التي فعلوها، ويفعلها جميع الناس دون أن تدرج في قاموس الإثم، بدت في ضمائرهم شديدة الإيلام.

استغرقوا في ذلك وقتاً طويلاً، أخرجهم فجأة من موتهم صوت عراك شديد في الحديقة، اقتربوا من النوافذ، نظروا باندهاش وصياح.

* * *

وجدوا رجلاً قوي البنية، يصرع السلعوة فوق الصخرة ممسكاً بفكيها، أبعدهما عن بعضهما، جذبهما في اتجاهين مختلفين بقوة

كبيرة، جعلت الحيوان يثور ويرفع صوته مزمجراً.

أخذا يتقلبان فوق بعضهما، في النهاية استطاع الرجل أن يمزقه إلى نصفين حيين، وضعهما تحت قدميه، وضغط بشدة.

مشهد قوي جعلهم يفغرون أفواههم، وروح الحيوان اللاهثة تئن متألمة، تصعد من اللحم الحي الملقى فوق الحشائش.

خرجوا إليه مندفعين، أدخلوه إلى البيت وهم يتعجبون من قوته، ومن عراكه مع حيوان كاسر لا يُقدر عليه، حاصروه بالأسئلة والفرح يحركهم، ويضخ الحياة من جديد في أوصالهم:

- كيف وصلت إلى السلعوة؟

.. ألم تخف منها؟

.. كيف واجهتها؟

.. كيف تمكنت منها بتلك السرعة؟

.. لِـمَ واجهت الموت لأجلنا؟

ظل في صمته، تحت حصار أسئلتهم ودهشتهم، محاولاً استيعاب ما فعله، فقد هاجمته أسئلته قبل أسئلتهم الكثيرة، فكيف واتته الجرأة لقتل حيوان متوحش؟، ومن أين له بتلك القوة؟، الشعور بالثقة بدأ يتسرب إليه، أجاب نفسه بأنه قوي البنية، مفتول العضلات، لكن ذلك لا يعطيه الفضل على حيوان في حجم وقوة أسد مهيب، أو ذئب ضخم، أرجع السبب إلى أنه استشعر نوعا من الاستسلام يسيطر على الحيوان، إضافة إلى المخدر الذي حقنه به، ظَلَّ في طواف بكل التساؤلات النابعة من داخله، يحج إلى روحه الهاربة منه منذ زمن بعيد، وبحثه عنها أياماً طويلة، هي عمره، إلى أن دخل الرجل الهرم، الذي التقاه في غرفة الحراسة أمام البيت،

بدأ يتكلم بشغف:

- دخل عليَّ، وأنا أموت رعباً، بعدما ظللت في حجرتي غير قادر على رؤية البوابة، حبستني السلعوة برهبة الموت، ففي كل مرة كنت أحاول أن أخرج يفاجئني صوتها، الذي يزلزل الأرض تحت قدميَّ فأرتد إلى ركن الحجرة، أوقن أنني هالك لا مفر.

حين دخل هذا الرجل المنقذ رأيت طيفاً لا يكاد يلمس الأرض، تحدثت إليه بينما جسدي يرتجف وشعور ما سيطر عليَّ بأن الفرج آت، كنت في حاجة إلى من يضمني، ويزيل الخوف والرهبة من مفاصلي التي هرمت، ثم تركني أتكلم، طلب مني أن أخرج إلى الصيدلية وأحضر مخدراً وحقنة كبيرة، أمسك الفأس، صنع نفقاً من داخل حجرتي باتجاه الصخرة التي ينام فوقها مصدر الرعب.

سكت الرجل ليستجمع أنفاسه اللاهثة، يجفف وجهه من آثار المجهود الزائد الذي يبذله في الحكي، وجد أنهم لا يطيقون الانتظار، واصل حديثه:

- تتبعته في النفق الذي يحفره حتى وصل إلى الصخرة، أحدث بها ثقباً، ضخ المخدر في بطن السلعوة، انتظرنا فترة، تركني وصعد من الثقب بعد أن حوله إلى فتحة تسمح له بالخروج، بعدها سمعت الزئير والعراك، واهتزاز الصخرة فوق رأسي، فعدت بسرعة وخرجت إلى الحديقة... يا له من ظفر قوَّى عظامي وأغبطني.

* * *

قلدوه طوقاً من كلمات الشكر والإعجاب، استضافوه عندهم عدة ليال، وجدوه يتكلم باقتضاب شديد، في أمور عامة، كلما

حاول التاجر - صاحب البيت - دفعه إلى الحديث عن حياته الخاصة، وتفاصيلها، يهرب من أسئلته، يدفعها إلى اتجاه آخر، فتركه على حريته.

لم يخبرهم الرجل بشيء عنه، رغم الفضول الذي يحركهم، كل ما قاله لهم هو أن يتركوه وشأنه، في المدة التي سيقضيها عندهم، ففعلوا.

* * *

انطبعت في ذهن التاجر ملامحه وقوته الجسمانية، بقى منظر صرعه للحيوان ماثلاً أمامه بقوة ألحت عليه، اتصل بصديقه ــ تاجر التماثيل ــ أراد منه أن يكلف أحداً من صنّاع التماثيل، أخبره برغبته في صنع تمثال لساهر وهو ممسك بفكي أسد، في حالة عراك، ليثبته فوق الصخرة، ويجعل الماء يخرج من فم الأسد، ومن أفواه الضفادع التي ترقد على حافة نافورة كبيرة تتوسط حديقة البيت.

* * *

بعد المكوث بين أفراد البيت، تعرفه على تفاصيل الحياة التي كان يراها من الخارج، دون أن يلقي لها بالاً، خرج إلى الحديقة، رأى المثّال يتأمل ما صنعه، دار حوله من جميع الزوايا، فرح بما رآه، شكره مبدياً إعجابه بدقة عمله، ثم ودعه ومضى إلى حاله، بعد أن وعد صاحب البيت بالعودة لزيارته من وقت لآخر.

* * *

الهزة التي أحدثتها الأسماك وهي تقفز في الماء، جعلت التاجر يقف أمام حوض السمك الزجاجي، تتبع السمكة الأرجوانية،

وجدها تتحرك بسرعة، تتخبط بالحوائط وتنبش في عشب القاع، محاولة الهرب من شيء ما، دقق أكثر في الماء وهو يتراجع للخلف، جلس على كرسيه الهزاز، تعجب من ذعر السمكة، حين رأى السمكة الأخرى الفضية تنام مستكينة تحت الحشائش، في قاع الحوض، غير مبالية بما تحدثه الأرجوانية من ضوضاء.

وهو مستغرق فيما يراه، أخرجه صهيل متواصل، سمعه يأتي من الخارج، مشى إلى النافذة، استند بذراعيه على الحافة، رأى أحصنة تعدو من أمام بوابته، تاركة وراءها سحباً هائلة من دوامات الغبار، متتبعة الأحصنة، ممسكة بأذيالها.

* * *

الطريق أمام البيت يؤدي في نهايته إلى مكان فسيح، يجتمع فيه الناس مدة شهر من كل عام، يبيعون فيه دوابهم من الجمال والأحصنة والحمير، كان يرى الناس وهم آتون من بلدان بعيدة، وقد لوحت الشمس بشرتهم، ولونتها بسخونتها وصبغتها بليلها الأسود.

يفترشون الأرض وينصبون خياماً في الخلاء، وكل منهم يعرض بضاعته منادياً عليها بصوت مميز، وطابعاً عليها الأختام، التي تميزها عن غيرها، والتي تنتمي إلى المكان والقبيلة التي أتت منها الدابة.

ذهب إليهم مرات كثيرة، جلس بينهم مستمعاً لحكاياتهم، واضعاً قدماً على قدم، مندمجاً معهم في حياتهم، فقد كانت مهنته في تجارة الغلال متوارثة في عائلته، رغم حصوله على تعليم عالٍ، وتخرجه في كلية الفنون الجميلة، فإنه فضل أن يستمر في نهج أبيه

في بيع الغلال، لكنه لاحظ بعض الاختلاف على وجوه الناس والدواب، في ذلك اليوم، شعر بتوتر ما، لم ير سبباً واضحاً له، عاد إلى داخل البيت، طرأت في ذهنه لوحة، فقد كان يستهويه أن يرسم بعض المناظر من وقت لآخر، على قدر ما يستطيع، نظر في صندوق مخيلته وابتسم، جلس على كرسيه، أسند رأسه للخلف، مغلقاً عينيه على ما يفكر فيه، راح يتأرجح ببطء، وتركيزه يتجمع في نقطة واحدة، بدأ ينطلق منها.

أمسك فرشاة، خط خطوطاً مختلطة الألوان، أبعد ما رسمه عنه ونظر إليه مستغرباً، رأى حيواناً غريباً يتحرك أمامه، خارجاً من اللوحة، جسمه الطويل مقسم إلى حلقات عرضية، رقبته مكسوة بشعر غزير، شكله تحول إلى تنين مرعب، النار تخرج مندفعة من فمه، لولا أن السقف عالٍ لحرقت ناره البيت، حاول أن يسيطر عليه فبدا الغضب على أطرافه، تركه يخرج من البيت ويتخطى البوابة، وقف أمام التمثال المثبت في النافورة فترة، قبل أن يعدو خلف الغبار، الذي تثيره الأرجل المسرعة، في اتجاه ساحة البيع والشراء.

* * *

في موقع الخيام والدواب حين رآه الناس وقفوا مدهوشين ومجمّدين، والحيوانات على اختلاف أنواعها اضطربت، تداخلت في بعضها، كادت تدهس الجاثية على أرجلها، والنائمة في التراب.

وقف التنين الخارج من اللوحة أمام الخيام، محركاً ذيله الطويل يميناً ويساراً، مشى بتؤدة، صعد فوق صخرة وجلس عليها، عندئذ وقفت الحيوانات، اصطفت في صفوف كثيرة، مزاحمة بعضها

البعض، بدت متأهبة لسماعه، في انتظارها شوق وترقب.

* * *

نظر الحيوان إلى وجوه الحيوانات المترقبة، مبدياً رغبته في الحوار، تقدم إليه واحد من كل نوع، وقفوا أمامه يحاورونه:

- لماذا أنتم مجتمعون هكذا؟
- إننا هنا نُباع ونُشترىَ!
- لماذا تتركونهم يتحكمون في مصائركم؟
- إنهم سادتنا، أولياء نعمتنا.
- لا.. إنهم مستعبدوكم.
- إنهم يكفوننا لقمة العيش.
- الحياة ليست مَعِدَةً فقط.. الحياة حرية.. يجب أن تملكوا مصائركم حتى يحترموكم..

كيف لنا هذا ونحن ضعاف؟

- لا، بل أقوياء، أقوياء جداً لدرجة لا تصدق.. هل نظرتم إلى أنفسكم؟ هل رأيتم ما تقدمونه من عمل؟ إنكم قادرون على فعل ما تنوء بـه الجبال، إذا اتجهت بصائركم إلى الحرية، حتى لو ضحيتم بأنفسكم، الحياة ننالها مرة واحدة فقط وليس هناك مفر من أن نحياها بكرامة وإلا فلا.
- وهؤلاء البشر؟!
- إن منهم من يشفق عليكم، وإذا فعلتموها من أجل حرية جنسكم ولو عنوة سيكونون معكم.

نظروا إليه، صفقوا له جميعاً، وعيونهم ثائرة شحذوا همتهم، واتجهوا متجمهرين ناحية الحرية.

* * *

ضحك التاجر بهستيريا من ذلك السيناريو الذي رسمه في رأسه، عن حوار الحيوانات في السوق، ورغبتها في نيل حريتها، شرع ينفذه في لوحة أمامه، بينما السكون يسيطر على كل شيء حوله، وبيته نائم بالدور العلوي، اهتزت الأرض بعنف، وهو يتأرجح بكرسيه ويبتسم، رأى الأشياء المعلقة في السقف تهتز، والحوائط على وشك أن تمشي من مكانها، ظنّ أنه ما زال في حواره مع الحيوانات، لكنه انتفض خارجاً من لا وعيه إلى وعيه، صرخات عالية تأتي من الحجرات العلوية، اتجه مسرعاً إلى أعلى، وجد زوجته وابنته جمانة متعانقتين، ومنبطحتين على الأرض في هلع ورعب، تترقبان وتنظران ما سيؤول إليه الأمر، بعدما رأيا نهاية الدنيا تخرج من باطن الأرض، مزيحة كل ما يعوقها، قفز إليهما، أخذهما بين ذراعيه، محاولاً طرد الخوف والتوحد بهما، همس إليهما:

- اطمئنا.. سيهدأ الزلزال الآن.
- كم تبلغ قوته؟!.
- سوف نسمع ما سيقولونه في نشرة الأخبار.
- تعتقد أنهم سيعلنون الحقيقة؟
- لماذا يخفونها، الإذاعات الأجنبية ستحكي بالتفصيل والدقة المتناهية.
- لا أدري.. اعتادوا ذلك في كل الأمور.
- معك حق.
- إلى متى تظل الحقيقة مجرد تخمين..؟!
- حين يتجه المجتمع إلى الإنسانية، ستتغير الأمور.

* * *

نزلوا إلى أسفل، يتفقدون حال البيت، خرجت جمانة إلى حوض السمك، وانفجرت في البكاء، رجعت إلى أمها واحتضنت خصرها.

بعد أن هدأت، أخبرت الأم ابنتها أن تستعد لجنازة صديقتها الغارقة في الحوض الزجاجي، تركتها جمانة وخرجت إلى الحديقة، حفرت حفرة بين الورود المتناثرة حول النافورة، تطلعت إلى التمثال، راحت تلمسه بيديها، في انتظار موكب الدفن.

* * *

وقف التاجر وزوجته أمام الحوض الزجاجي، وجدا السمكة الفضية طافية فوق سطح الماء، نائمة على أحد جانبيها، وهو يرفعها بأصابعه، رأى السمكة الأرجوانية تتخبط في كل أرجاء الحوض، تقترب من جانب السمكة الفضية الغاطس في الماء، وتمسك زعنفتها، محاولة سحبها لأسفل، فموت رفيقتها أزعجها، جعلها تسبح في بحر الوحدة بلا روح رفيقة، ترطب جفافها، تدفعها إلى مواصلة حياتها.

* * *

بَالونُ الأحلام الضخم كبر في رأس جمانة، وهي تسأل أباها عن المنقذ، الذي أنقدهم، فأعوام كثيرة مرت، لم يزرهم ساهر كما وعدهم، طوال تلك المدة الطويلة ظل ذهن التاجر مشغولاً به، وقف على رغبة ابنته الملحة في التعرف على ساهر، صنع له تمثالاً آخر، أكثر شموخاً وجمالاً، وضعه أمام البوابة الرئيسية للبيت، بدا له أن ما صنعه من قبل مجرد قزم، لا قيمة له، أمام حضور المنقذ

- ساهر - بقوته وعنفوانه، حتى إنه قد مرت عليه لحظات كثيرة خُيل له أن الأمر لم يحدث، ولم يكن هناك سلعوة، وأن خياله هو الذي أوجده، ونصبه هناك في حديقة البيت، أن شطحته الفنية في تلك المرة اتسعت إلى درجة أنها أصبحت حقيقة ملموسة، يراها مجسدة أمامه ليل نهار، وانتقلت عدواها إلى زوجته وجمانة والبستاني، أوقات أخرى يراه واقفاً أمامه بلحمه، وروحه وأثره.

* * *

وكان المارون من أمام البوابة يقفون طويلاً، وتبدو الحيرة في عيونهم، كأنهم يرون تمثالاً لأول مرة، أو ربما يفكرون في هذا الواقف في العراء، بلا ساتر يستره ويحميه، فصنعه متقن إلى الدرجة التي تضيع فيها الحقيقة، بمجرد النظر لأول وهلة.

* * *

في كل صباح يخرج البستاني ينفض عنه الغبار، ويعود إلى عمله في حديقة البيت، يسوي الحشائش، يعتني بالأشجار، يجمع ثمارها، في الليل يبيت في حجرته وحيداً، فقد ماتت زوجته منذ زمن بعيد، وولده الوحيد الذي آثر أن يعلمه تعليماً عالياً بمساعدة مخدومه التاجر، سافر، لم يره منذ سنوات، أخباره كادت تنقطع عنه لولا رسالة تأتيه على فترات، فينام على الذكرى والدموع تغلبه، تسح من عينيه بغزارة، تحفر وجنتيه كنهر متدفق يعمق مجراه.

حين ينام يأتيه الحلم، يرى نفسه صاعداً إلى السماء، وفي طريقه يرى ساهراً واقفاً خلف نافذة يرقب ما يطير حوله، يرنو إليه دون أن يتكلم، يواصل صعوده مدهوشاً بما يخترقه في الفضاء.

صار يقترب من النافذة يوماً بعد يوم ويراه خلف زجاجها مبتسماً، في إحدى المرات مد يده، حاول أن يلمسه، فاصطدمت أصابعه بشيء صلب، تحسسه بيده وجده أملساً، وضع كلتا يديه عليه، وقف على حقيقته، أمسك أعمدة السرير الحديدي، الذي ينام عليه وصحا مفزوعاً، سقط في دوامة من الإحباط وعدم الرضا، لأنه اقترب من الخيال الذي صنعه في حلمه ولم يجده، وكلما حدث له ذلك يصحو من نومه غير راض بما يراه، يخرج إلى التمثال، يقف أمامه، يقترب منه، يلمسه براحة يده فتعاوده ابتسامته.

* * *

البنت الصغيرة جمانة لم تع ما وقع في حديقة البيت، حين حدث ما حدث، فظهور السلعوة في الحديقة جعل الأب في توتر دائم، أبعدها عن النوافذ، فلم تفهم أبعاد الخطورة في حينها، الآن أصبحت شابة تكتشف الحياة من حولها، تبحث عن جذور الأشياء في عالمها المحيط بها، تخرج في الصباح إلى الحديقة تنظر للتمثالين، وهي مدهوشة وهائمة في خيالاتها.

تسأل أباها عنهما كل يوم، فيجيبها بحكي جزء من قصتهما، إلى أن اكتملت القصة في رأسها، صارت أكثر شغفاً وتعلقاً بالفارس الجامح في رأسها.

الذي زاد خيالها وألهبه ما كانت تسمعه من البستاني في الحديقة، جعلها تظل ملاصقة له وهو يقوم بعمله، يحكي لها بفيض، وتجديد في المواقف والأحداث، التي يبتكرها تلقائياً للترويح عنها، لإبقائها بجواره أطول وقت ممكن.

في الليل تظل ساهرة خلف نافذتها، تتساءل:

- ترى أين هو؟ كيف الوصول إليه؟

سألت تلك الأسئلة من قبل لأبيها، لكنه لم يكن يملك الإجابات، مما جعلها تدخل في كهف التيه، فكل ما أمامها حجر أصم.. جسد بلا روح.. تذهب إليه ولهانة، تتحسسه، تضغط على الحجر بأصابعها، حتى خيل لها في المرات الأخيرة - من فرط ما أصابها - أن الحجر يلين، ينضغط تحت لمستها، وهنت من الحب والعشق، فكانت تغطي انصهارها بملاءة السهاد كلما أوت إلى فراشها.

في ليلة من ليالي الشتاء أمطرت الدنيا بغزارة، خرجت جمانة مسرعة، ألقت بغطائين فوق التمثالين، عادت ترتجف، وقفت خلف نافذتها، تنتظر توقف المطر، لتخرج إلى حبيبها، تجفف البلل عنه وتبتسم، إلى أن سقطت من الإعياء.

أحست أنه يحملها بين ذراعيه، يعود بها إلى البيت، يضعها في سريرها.

حين أفاقت من غيبوبتها، رأت أباها فوق رأسها، يمسح عرقها، يلومها على ما فعلته، شعرت بدموع أمها تلهب خدها، وارت وجهها خجلاً، أغلقت عينيها لكي تدفعهما إلى تركها وحدها، لتعود إلى عالمها الذي صنعته حولها.

* * *

انطفأت الأنوار، تركاها لتنام، حدقت في الزجاج، تشبثت بنور يتلألأ في الخارج، حملها بخفة ونعومة إلى عالم الأحلام، المليء بالزهور والحب والفراشات، المشبع بالأوهام والخرافات في آن واحد.

خرجت في رحلة مدرسية، إلى شلالات وادي الريان في صحراء الفيوم، رغم اندماجها مع صديقاتها فإنها كانت من وقت لآخر تنفلت منهن، تتنحى جانباً، لتعيش في أحلامها، سمعت خرير ماء ينساب على صخر، مشت إليه، وجدته يأتي من مجرى محاط بالأشجار، والحشائش المتشابكة، العالية، في انحدار طويل يصب في بحيرة صغيرة تكونت من مائه عبر سنوات طويلة، تسبح فيه أسراب البطّ الأبيض، وطيور الشحرور بمناقيرها الصفراء، وريشها الأسود الناعم، آتية من بلدان بعيدة لتقضي موسم الشتاء في تلك البحيرة الصغيرة، المحاطة بتلال منخفضة الارتفاع من كل جانب. مجموعة من الشباب والبنات يمرحون في الماء، بعضهم يتنزه في مراكب صغيرة، آخرون يسبحون تحت الشلال مباشرة، السائحون يرتدون قبعات من البوص النامي على جانبي المجرى، يلتقطون الصور للماء المتحول إلى ضفائر فضية لامعة مع سقوطه من فوق، يصعدون إلى التلة الصخرية التي ينحدر الماء من فوقها، يمشون ممسكين بالنباتات التي تمد أطرافها إلى الماء، حتى لا يجرفهم التيار إلى السقوط، ينظرون من أعلى على أقرانهم، يتبادلون التقاط الصور، وتسجيل اللحظات التي يحيونها بالقرب من ماء يخرج من تحت الأرض الصحراوية، ويُوَلِّد شلالاً يصنع بحيرة عذبة يحيطها الفراغ، والمدى اللانهائي المكون من رمال وحصى وأحجار جيرية ضخمة، تركت جمانة نفسها تسقط مع ماء الشلال، غطست إلى القاع، صعدت تلتقط أنفاسها، تزيح خصلات الماء من فوق عينيها، وجدت شخصاً أمامها يتطلع إلى مرايا القاع، محاولاً الدخول في بلّورها الشفاف، والوصول إلى نهايتها، لم تصدق عينيها، جففتهما

بسرعة، أسرعت إليه، حين وجدته يستدير إلى المصاحبين له، وهم يعودون إلى الخيام المنصوبة على الشاطئ.

* * *

جبل الشوق أخرج جمانة من بيتها حين تعافت واستردت قوتها، وفي نيتها أن تبحث عنه، بعد أن التقت به في رحلتها المدرسية، مرشداً لرحلة مدرسية أخرى، وأعطاها عنوانه، حيث وجدته قريباً جداً من بيتها، قطعت الشوارع والطرقات المجاورة لبيتها، وصلت إلى الجسر الذي يربط المنطقة التي تسكن فيها بالضفة الأخرى للنهر، حيث يعيش، عبرته بحيوية، وانطلاق، ومرح.

يدفعها صوت ما في اتجاه لا تعرفه، واصلت المسير إلى سفح الجبل، صعدته، ورأسها منشغل بذلك الشخص الغريب، بملامحه الظاهرة بوضوح، والتي رسمتها بفرشاة في قلب السماء، أصرت على أن تجدها، آمنت بما يمليه عليها قلبها، واتبعته، إلى أن أوصلها إلى مكان صخري لا تعرفه، ولا تدري مسالكه، فهل يأتيها الجني العملاق، الذي سمعت أنه يسكن على قمة الجبل، في كهف لا يستطيع أن يدخله أحد غيره؟، فكل من حاول أن يدخله هلك على بابه، بعدها يُسمع قهقهة عالية ترج الكون، ترفع ماء النهر، هل تغافله وتدخل لتحصل على مكافأته؟، يأتيها بحبيبها، طلبها الوحيد الذي ستطلبه منه، هل الأمنيات ترى أصحابها فتندفع بقوة إلى المخلصين لها؟، هل تتحقق أحلامها لمجرد أنها تسعى إليها بكل قوة وإصرار؟، هل حقاً الساكّن فوق الجبل جني؟ أم أنه ظل إنسان مفرود على المنحدر، آثر أن يبتعد عن الناس، ليعيش وحده في

ذلك البيت الصغير الذي يشبه الكهف؟.

أسئلة شغلتها في صعودها، ألهتها عن الخوف من الجني أو الإنسان، الذي وقف مدهوشاً من جرأتها، وهي تدخل عليه، فتاة صغيرة رقيقة الملامح، ألانت قلبه، بعثت الدفء في كهفه، تلطف بها وحَسَّن من هيئته، استعداداً للظهور لها، وقبل أن تستوعب ما أمامها، ارتعش جسدها، سقطت غائبة عن الوعي تحت قدميه.

* * *

كانت قد رأت الملامح التي تبحث عنها تنظر إليها، دارت عيناها في محجريهما، شعرت بدوار يقلب الجبل فوق رأسها، لولا أنه أسرع إليها لظنّت أنه محض سراب يراودها، رفعها عن الأرض، هزها محاولاً إفاقتها.

وجد أنها غير قادرة على الحركة، غائبة عن الوعي، حملها، نزل بها إلى ظل شجرة، في أول الممر الصاعد إلى الجبل، أجلسها، راح جاهداً يعيد إليها وعيها.

رش العطر حول أنفها، فتوالدت الفراشات في المسافة بين وجهيهما، حلقت مندفعة في الوهج الخارج من أنفاسه، وسكنت على عنقها، محركة أجنحتها.

من آن لآخر يأتي الهواء مندفعاً، يرفع ثوبها، فيضطرب حين تقع عيناه بعيداً عن وجهها، سريعاً يجذب طرف الثوب المتطاير ليغطي رغبته، إلى أن استردت يقظتها.

فتحت عينيها، مدت يدها إليه تتحسسه، تضغط على لحم ذراعيه، ازداد اندهاشها عندما أدركت أنه حقيقة ماثلة أمامها،

ابتسمت، ودت لو تخبره أن بها من الشوق إليه ما لو فُتح على الجبل لأغرقه حتى قمته.

زفرت بارتياح، ألقت رأسها على صدره، قالت:

- لِـمَ لم تعد؟

لم يرد، بدا عليه أنه لا يفهم شيئاً، فهو يراها للمرة الأولى.

كيف استراحت إليه هكذا؟

كيف تعلقت به إلى الدرجة التي تجعلها آمنة معه؟

من هي؟

ومن أين أتت؟

دارت الأسئلة في ذهنه، وهو جالس إلى جوارها، وهي مائلة على صدره.

شعور السرور تسرب إليه حين وجدها تتحدث إليه، كما لو كانت تعرفه منذ زمن، بل كما لو كانا حبيبين التقيا بعد طول غياب، خمن أن هناك لبساً ما يحجب عنها الرؤية.

* * *

تفرس في ملامحها الهادئة، بريق عينيها الآخاذ، أنوثتها الحاضرة، تاه في تفاصيلها الدقيقة، أصبح مشغولاً وشغوفاً بها، نسى أن يسألها تلك الأسئلة التي شغلته أول ما رآها، محا وجهها البريء من رأسه كل الظنون السيئة التي تبادرت إليه، حين وجدها ترتمي بين ذراعيه أول ما رأته.

* * *

أدركت أنها تستطيع أن تجعل في قلبه مثل ما في قلبها، حين

أحست برادارها الأنثوي أنه انشغل بها من أول وهلة، لذا أخبرته أنها تسكن على الضفة الأخرى من النهر، وأنها ضلّت طريقها، لم تخبره بما تعرفه عنه، أضمرت في نفسها شيئاً وعزمت على تنفيذه.

لاحقته بأسئلة لم يتوقعها، عن نفسه، عما يأكل، عما يعرف من أناس في اتجاه بيتها.

* * *

شعر بالارتباك الشديد، نظر بعيداً، أدرك أن الوقت مر سريعاً، عندما وجد الشمس متهيئة للإدبار خلف الجبل، والليل أوشك أن يطرد بقايا ضوء النهار.

- هيا بنا أوصلك إلى بيتك.

مشى جانبها، والقلق المربك يسيطر عليه، ويداه مضطربتان، تحاولان أن تقدما على شيء، كاد يفلت منه الزمام، دسهما في جيبيه تحاشياً لما يريد، لكنه لم يطق، أخرجهما وتركهما، قبض أصابعها اللينة في كفه.. ابتسمت له.. رفع كفّها إلى شفتيه، طبع قبلة طويلة عليها، وقعت عيناه على ساعدها الشفاف، والدماء تسري داخله، ترك نفسه معها على سجيتها..

ومن تلك الإيماءات توالد التجاذب بينهما، أسرع من عنفوان البرق.

* * *

عبرا النهر، مرا على الساحة التي تمتليء بالحيوانات، في شهر معين من كل عام، للبيع والشراء، حكت له قصة التنين الذهبي التي سمعتها من أبيها، وكيف أنه دفع الحيوانات إلى الثورة، والمطالبة

بحقوقها التي سلبها بنو البشر، ابتسم قائلاً:

- واضح أن أباك مغرم بالحكايات.

- إنه فنان يحلق في الخيال.

- أرى ذلك جلياً، فتلك البنت من ذاك الأسد.

- هل تسخر مني؟.

- لا.. لكنك لا تفرقين بين الواقع والخيال.. وهذا دليل خطر.

- وما العيب في ذلك.. طالما أنك قادر على صنع حياة خاصة بك.. تشكلها كما تريد.. لا كما يريد الآخرون حتى لو كانوا أقرب الناس إليك.

- ربما!.

دخلا إلى الشارع الذي فيه بيتها، وجدها ترتدي الصمت والترقب، تنظر إليه، أخبرته برغبتها في أن يصل معها إلى أبيها، يخبره بما حدث لها من إغماء فوق الجبل.

وافق مرحباً، وهو يحاول أن يفهم كلامها ومنطقها، يتلمس أسباب تعلقها به من الوهلة الأولى.

شعرت أنه أصبح مرتبطاً بها، ولن يستطيع أن يغادرها بعد الآن.

رتبت في نيتها أن تذهب به إلى البيت، ترى وقع المفاجأة على وجهه حين يرى تمثاليه، حين يعرف أنها هي نفسها تلك الطفلة، التي كانت تلهو جانبه، وهو مقيم عند أهلها.

ازدادت حماستها، وهي تتخيل منظره والدهشة تنطلق من عينيه.

* * *

وصلا إلى حيث أرادت، تعمدت ألا تقف أمام التمثال الماثل أمام البوابة، لكنه وقف متأملاً، همس:

- تمثال جميل!

نظرت إلية مستغربة، عللت دهشته بأنه قد صُنع بعد رحيله، واصلت السير بتجهم، قابلها البستاني، وقف أمامها يحييها، نظر إلى رفيقها واجماً، اندفع نحوه، قبض على كتفيه، وهزهما مرحباً:

- أخيراً، عدت إلينا.

أضاف بعد أن تراجع قليلاً:

- هل رأيت تمثاليك؟ إنني أعتني بهما يوميّاً منذ ذهبت.

بدا عليه أنه لا يفهم شيئاً من كلام الرجل، واصل المسير خلفهما، وجدها تقف أمام النافورة، تعجب بصوت خافت:

- شاب يصرع أسداً..!

- يالها من قوة في خيال المثّالين...!

وصلت الكلمات إلى سمعها المتحفز، فازدادت غيظاً، سألته:

- ألا تعرفه؟

- ألم تر هذا الأسد من قبل؟!

ضحك بهستريا زاعقة:

- أنا..؟!

- أنت!.. نعم أنت.

واصل ضحكه إلى ما لا نهاية..

بعينين مواربتين، زامت في سرها:

- "ماذا أصابه؟ وماذا أصاب ذاكرته؟"

"أبي.. ليس غيره.. هو الذي سيعيده إلى رشده.. لا.. إنه سيتذكره حين يراه.."

أمسكته من يده، دخلت به إلى أبيها، وهما في طريقهما في

الردهة، قالت معاتبة:

- أنه أبي تاجر الغلال، الفنان في وقت الفراغ، تُراك قد نسيت ذلك أيضاً؟!

- عفواً، لا أفهم ما تعنين.

* * *

صعدت إلى شرفتها، ارتكنت بكوعيها إلى السور، راحت تنظر إليه وهو ماش في الشارع، سلطت عينيها عليه حتى تلاشى طيفه على مرمى بصرها، بدا وجهها شاحباً، ويداها قلقتين، فقبل أن تدخل به كانت عازمة على ألا تتركه يخرج مرة ثانية، ها هو أمامها، دون أن تستطيع أن تستبقيه.

صعد أبوها إليها، وضع يده على كتفها:

- يا ابنتي ماذا عسانا أن نفعل؟.

- لكن يا أبي، إنه لا يتذكر شيئاً مما حدثتني عنه، بل لا يعرفك، هل لاحظت وجومه حين وجدك مندفعاً إليه؟ هل رأيت عينيه؟!

- سيعود يا ابنتي، أنا واثق من ذلك.

- ترى ماذا يخبيء؟ لماذا لم يخبرنا بمكانه؟

- دعي الأيام تُرنا ما تحمله في نسيجها.

* * *

قررت ألا تظل في مصيدة الانتظار بعد ذلك، أخبرته أنها سوف تذهب في الصباح إلى الجبل، تحاول أن تعرف ما يدفنه في بئره، تعيده إلى البيت، إذا لم تستطع إعادته فسوف تبقى معه في عالمه حتى يتضح لها ما تبحث عنه.

كاد الأب يخبرها بشيء أداره في رأسه الحائر، لكنه تراجع

متجنباً أن يدفعها إلى إحباط جديد، أو خوفاً من أن يكسرها، ويصدمها بالواقع الصلب، الذي يحاول دائماً أن يجعلها بعيدة عنه، ابتسم، لمس وجهها بأصابعه، ربت على كتفها، تركها لأفكارها، وهو يسحب نفَساً عميقاً من غليونه الأسود الذي اشتعل بين أصابعه.

* * *

لم تر أو تعرف سوى ما سمعته عنه وآمنت به، لذا قررت أن تستكشف الواقع الذي يعيشه، تدقق في تفاصيله، تقف على الحقيقة التائهة منها، والتي أخفاها الأب، ولم يخبرها بها.

قبل أن تنام قرأت في كتاب، سحبته من مكتبة أبيها وهي ممددة باسترخاء، فقرة وقفت أمامها منتبهة، رددتها بتأن:

"نحن الذين نصنع الخرافة،

وبمرور الوقت تصبح هي الحقيقة،

والواقع المعيش حولنا".

أغلقت عينيها تاركة البسمة تفترش وجهها، وتندِّيه بأمل آت من أعماقها، هامت في لون الحب الذي صبغ روحها وجَمَّلها، دخلت في سرب الهائمين وراء قلوبهم، وأجنحة الملائكة ترفعهم برفق، إلى نهر السماء الوردي، هناك تتلاقى أرواحهم، ولو بعد حين.

* * *

الهُيام

ألف يوم في النهر، مدة كافية لرتق الروح، وإحياء الجسد من جديد، بحفر ممر يحمل الماء إلى الأرض العطشى. كان يفكر في ذلك الزمن البعيد، حين خرج من بيت التاجر، يشغله حال الفتاة الناعمة، التي تتعلق به إلى درجة جعلته في حيرة من أمره، رشق كيوبيد سهمه النافذ في قلبه، وتركه وحده يقرر ما يفعله تجاهها، استعرض في ذاكرته حياته الماضية، وهو يصعد إلى قريته النائمة فوق الجبل الحارس للنهر، كانت به رغبة أن يتحرك، أن يغير مكانه، هرباً من شيء ما ينتفخ في صدره، اصطحب جماعة من أصدقائه وتلاميذه في المدرسة في رحلة نهرية، جهز مركباً من المراكب المنتشرة على ضفة النيل، أسفل قريته.

في المرفأ وقف يحثهم على النهوض، فتبعوه، حملوا ما يحتاجون إليه، راحوا يتطلعون إلى الأفق البعيد، بدا على وجوههم فرح طاغ، وهم مسافرون إلى رحلة عبر التاريخ، إلى جذور ذلك الكائن، الذي يشربون من مائه، يتنفسون بجواره، يأكلون من ريه، مطمئنون إلى الحياة، وهم يسمعون صوته المنساب في هدوء وسكينة، عابراً المدن والقرى والنجوع والكفور والصحاري، غارساً الحياة في عمق الأرض، متبختراً في الدنيا من جنوبها إلى شمالها، متخلّلاً شرايين الأشجار والنباتات، أنصتوا إلى هديره النابع من أنفسهم، والمختلط بخلجاتهم، تركوا قلوبهم تذوب فيه، تفيض على صحراء مشاعرهم. كان يفكر في مقولة أن مصر هبة النيل، كان يرى الوجه الآخر لتلك الجملة الميتة، قال في نفسه إن مصر ضحية النيل، لأنه جعل المصريين يركنون إلى السكينة والهدوء، نائمين في

حضن مياهه، تاركين الصحراء بكل ما فيها من ثروات، ينهش فيها الجفاف والخلاء من كل جانب، فماذا لو لم يكن النيل موجوداً؟! هل كان الناس سيموتون عطشاً؟! كانوا سيبحثون عن مصدر للماء، وربما انتشروا في الصحراء الواسعة، وجعلوها مكاناً مناسباً للحياة أفضل مما هي عليه الآن، أكثر براحاً وراحة من ذلك الشريان الضيق الملاصق للنيل، ربما تغيرت طبائعهم إلى غير ما هي عليه الآن من فتور، ورضاء بالأمر الواقع، دون أن يثور الدم في عروقهم والحياة تتبدل من حولهم، وهم لا حول لهم ولا قوة، شائخون تماماً مثل النيل، الذي ملّ من السريان بين وجوه نائمة متبلدة، لا تحفل بأي شيء يبعث الحياة في أرواحهم من جديد.

* * *

وقف ممسكاً بسارية المركب، أشار إلى المراكبي تجاه الجنوب، توجهوا والشراع يشق الماء بليونة ويسر، تفرّس في ملامحهم الهائمة في ماء النهر، عيونهم تتلاقى هناك، عند مجرى مائي على الضفة اليمنى للنهر، على مرمى أبصارهم، عندها ينزلق الماء، يسافر بعيداً، يندفع إلى شق عظيم بلا قرار.

وكائنات الماء تنطلق من القاع طائرة حول المركب، محركة زعانفها، رؤوسها، وأذيالها في اتجاه السماء، ألقت الوَنَس على أفراد الرحلة، الذين مالوا على حواف المركب، مدّوا أيديهم ليسلموا على تلك الكائنات المحبة، التي أضاءت لهم الليل بضوء فسفوري يتلألأ في نور القمر.

* * *

وجدهم شاردين، لفت انتباههم، شدّ تركيزهم، وهو يفسر اللغز أمامهم، فعند تلك الفتحة المسماة بثغرة "الهوارة" أو "اللهون"، عبر فرع صغير من شجرة النهر، انتقل الماء إلى واحة الفيوم، في زمن ماضٍ، من خلال بحر يوسف، الذي حفره يوسف "الصِّدِّيق" في عهد فرعون مصر "العزيز" حين كلفة بذلك.

كانت المنطقة في ذلك الوقت مليئة بالمستنقعات، فجمع الشباب حوله، عملوا ليل نهار بلا كلل، مدة سبعين يوماً، أنجزوا خلالها حفر البحر، استصلحوا الأرض، أنقذوا الناس من مجاعة كانت ستهلكهم لسبع سنين، أضافوا إلى مخازن الغلال زروعاً وفيرة.

حين وجد العزيز أن العمل تم بتلك السرعة، اجتمع بيوسف، قال له إن العمل كان يحتاج لألف يوم على الأقل، أدمج الناس الكلمتين في تداولهم فيما بعد، أصبحت "الفيوم".

عند ذلك صاح واحد من الرحلة:

- رائع.

أضاف آخر:

- نريد أن ندخل في ذلك البحر.

أكد الباقون على قوله بإصرار، أشار للمراكبي أن يلبي ما سمع، أن يدخل بهم في تلك الثغرة، والإبحار في بحر يوسف، غيروا مسار الرحلة تجاه الفيوم، طلبوا منه أن يخبرهم بالمزيد، معتمدين على أنه بحكم تدرسيه لهم مادة التاريخ، فلن يكون هناك أفضل منه لإطلاعهم على المزيد.

ضحك وهو ينظر نحو الشمس، جلس على حافة المركب، تمدد تجاه الماء، حفن بيده وشرب، بلل وجهه وملابسه في سعادة،

وجدهم يندفعون، محدثين ارتباكاً.

أقلقه هرجهم المستمر، أربك قائد المسيرة، ذا الوجه الأسمر والملامح النحيلة، الذي اقترب منه مشيراً إلى ما يفعلونه، تبادلا النظرات بسرعة، ناداهم، أمرهم أن يلتزموا الهدوء، وسوف يتركهم يلمسون الماء واحداً إثر الآخر، استجابوا، وهمهمات أصواتهم تعلو فوق رؤوسهم، وتجذب الكثير من أسراب الطيور من السحب البيضاء، التي تظللهم بأجنحتها الباردة.

* * *

سكنت الواحة وعمرت بالسكان في عام 4440 قبل الميلاد، أصبحت منتجعاً لكبار رجال الفرعون، ووزرائه، بالقرب من بحيرة "موريس" الهائلة، التي تبخر وتسرب منها الماء بمرور الزمن، لم يبق منها إلا بحيرة "قارون" الصغيرة، التي لا تزيد مساحتها عن مائتين وعشرين كيلو متراً مربعاً، مستوى الماء فيها تحت عمق خمس وأربعين متراً من سطح البحر، اكتسبت تسميتها من قارون - وزير فرعون - وحامي خزائنه التي لا تحصى، لكن شوقه إلى المزيد، جعله يُرجع غناه إلى عمله بالكيمياء، وقدرته على تحويل التراب إلى ذهب.

وأثناء تجاربه السميائية على المعادن وقع انفجار هائل، زلزل داره، عمّقه في باطن الأرض، تحت طبقات رسوبية هشة، من الحجر الجيري والحجر الرملي، سدت عليه المنافذ، منذ ذلك التاريخ أصبحت مياهها تتحرك في موجات حزينة، تكاد تتلاشى قبل أن تولد، وتمر الطيور من فوقها مترددة، غير قادرة على الغوص،

والتقاط الأسماك لتطعم صغارها، أو تسد رمقها، والصيادون يفردون شباكهم ويلقونها ببطء، شيء ما في نفوسهم يحذرونه مع سحبها من الماء في كل مرة، فتخرج خاوية وممزقة.

* * *

وجهوا إليه سؤالاً بعد أن ذاقوا الماء المالح:

- أنت ترى الملح على ألسنتنا، فكيف انتشر ذلك النماء والاخضرار؟

ابتسم، وهو يتحرك، يطالع ما بين يديه، قال:

- تلك هي البردية التي سأطلعكم عليها، لكن دعونا الآن نستمتع بالمناظر الخلابة.

* * *

أمطرت السماء سمكاً، وضفادع، وحشرات على رؤوسهم، وقعت تحت أرجلهم، استقرت في باطن المركب ساكنة، مهدودة، جرفوها بأصابعهم، ألقوها في الماء، والدهشة تغلبهم، من ذلك الإعصار، الذي حمل من كائنات البحيرة في مخروطه الدوار ما لا حصر له، نقلها مسافة كبيرة، أسقطها في هدوئه، عند ابتعاده متجهاً إلى أعلى قمة جبل "قطراني" البازلتية السوداء، متوسطة الارتفاع التي تدل على تخوم ناتئة، خرجت من براكين سادت منذ زمن طويل مضى، قُدر بأكثر من 40 مليون سنة، ترقد على شاكلة أجساد أفيال ضخمة، وجهت خراطيمها عكس دوران الإعصار فاحتك بها، تلاشى حولها، بدت من بعيد منبسطة ومتدرجة في الميل، تبرز على سفحها أعمدة معبد "خنوم آمون" غير المسقوفة، التي تئن بحرقة في وقوفها، مُستدعية أصوات تراتيل الكهنة، تحشد الجيوش،

تسلحها لمقاومة سيوف الإعصار الرملية، التي أحاطت بأطلال بيوت واطئة مبنية من الطوب اللبن، متآكلة بفعل التجوية المستمر، عُثر بداخلها على الكثير من قراطيس البرديات، مدفونة تحت طبقات هشة من صخور الحجر الجيري الأبيض، غطت تلك الغرود في زحفها السريع الطرق المعبدة، رسمت خارطة واسعة لمتاهة رملية، لا يخرج منها أكبر قصاصي الأثر، ردمت على الحياة تحت أرجلها، أقامت حوائطاً عملاقة حول القرى والبيوت المتناثرة في شكلها الأبيض، وقبابها الحابسة للهواء البارد.

* * *

بردية النماء.. واحدة من البرديات الكثيرة، التي خطها الكاهن الأعظم، عُثر عليها في الأقبية المدفونة في واحة الفيوم، جاء نَصُّها: ((.. رأيت أن البقرة البنية راقدة بشكل يدعو إلى الوقوف والتساؤل، عما أصابها من كسل بدا واضحاً على أذنيها المتدليتين، وعينيها النائمتين، وليونتها الغارقة في الوداعة. حين طالت رقدتها هكذا بلا حراك أو نعير، هاجمها ذباب الحيوانات الفضي بصوته المزعج، الذي يخرم الآذان، راح يلسعها بإبره الحادة من كل جانب في جسمها، فحركت ذيلها يمنة ويسرة، هاشة منه قدر ما تستطيع، لكنه وصل إلى فتحتي منخارها، دخل بهما.. هنا طارت في الهواء من الألم، تقلبت في التراب مرات ومرات، نفخت ونعرت، أرغت وأزبدت، دون جدوى، فلما رآها الغراب لا حول لها ولا قوة اقترب منها. استشعرت الخلاص بقدومه، رقدت في الأرض، بسطت عنقها أمامها، حتى أصبح رأسها أمامها، في التو

شرع في التهام الذباب من منخارها، في حركات راقصة دار حول نفسه متحنجلاً، ناظراً في عينيها المستريحتين، انتفض شارعاً رأسه لأعلى حتى تمتليء حوصلته، يواصل الأكل بنهم شاكراً لها وممتناً على ما قدمت له من غذاء شهي، سيبقيه في راحة لفترة طويلة.

تبادلا حواراً من أبلغ ما يكون في فن المساعدة. بعد أن استراحت وذهب عنها الألم نهضت من رقدتها، اهتزت بقوة، نظرت هنا وهناك، نعرت بفرح وطمأنينة، تحركت في اتجاه النهر، سبحت فيه وعبرت إلى الشاطئ الآخر.

* * *

وقف الغراب بعيداً، تأملها، مبهوتاً، مدهوشاً، قفز إلى أعلى، ترك نفسه ليصطدم بالأرض وهو مسرور، راح يهلل بطريقة جنونية، وملامح الفرح والزهو طافية على وجهه، أيقظ الطيور من نومها، لتنظر معه إليها.

هناك على الضفة الأخرى كانت البقرة تتهادى في الزروع، وقد تبدلت هيئتها، استعادت وقارها، تزيّنت بما يليق بمقام حتحور. ذلك ما أزعج، وأدهش، وأبهج الغراب، جمع حوله الطيور، مشى متبختراً رافعاً رأسه بفخر، قاصاً حكايات وحوارات كثيرة تمت بينه وبين الجميلة حتحور، أخبر مستمعيه أنها أنعمت عليه بهيئة حيوان ضخم، وأنها قد منحته حرية التحول إلى شكله الجديد، وأنها تصطحبه معها في جولاتها، وأخر جولة له كانت في سوق الحيوانات، بالقرب من بيت التاجر، حين أخرجته البقرة من اللوحة التي رسمها، على هيئة حيوان غريب، يقترب من التنين الذهبي،

يتنفس النار، يحرق ما يغضبه، يجلب السعادة لمن يريد، سرد على رؤوسهم كيفية استقبال الحيوانات له، وكيف أنه شد من أزرها، دفعها إلى أن تنال الحرية المسلوبة منها، عندما تبعته إلى منـزل رئيس المدينة، أدخل رأسه إلى الداخل للتفاوض معه، لكنه استهزأ به كحيوان بليد، شدّ جنوده أزندة البنادق، حشوا مواسير المدافع، تأهبوا للضرب المباشر، نظر إلى الحيوانات التي وراءه، واندفع بها في حديد المتاريس لخلعه، دون مبالاة بالرصاص المنهمر على أجسادها، حتى اخترقت الجدران، دخلت إلى الرئيس، وجدوه يفرّ، يصعد في عربته السوداء، يهرب من ثورتهم، قبضت الحيوانات الثائرة على أعوانه، كبّلوهم وألبسوهم ما كانوا يضعونه على ظهورها، حكموا عليهم أن يؤدوا بدلاً منها كل ما كانوا يقومون به من أعمال، أشار عليها أن تختار واحداً منها لينظم أمورها، فاختاروه، لكنه امتنع متعلّلاً برغبته في اللحاق بحتحور، ترك الحيوانات تنظم أمورها، ترتبها بما يحقق العدالة للجميع.

وضعت الحيوانات ميثاقاً للشرف يتضمن حفظ الحقوق للفرد، دون المساس بحريته الكاملة، وحتى يكون لكل منها الفرصة في أن ينال موقعاً يراه مناسباً له، يستطيع أن يوظف مهارته فيه، فرضوا على كل مسئول أن يترك موقعه يوماً كاملاً كل أسبوع، لمن يريد أن يشغله، أسموه يوم التنحي الأكبر، وإذا استطاع ذلك المتطلع الجديد، خلال الساعات الأربع والعشرين المقدسة، أن يقدّم كل ما يستطيع فعله وإنجازه من مهام، ومهارات تخدم الجميع أفضل من سابقه يستمر في موقعه إلى يوم التنحي الذي يليه.

* * *

الطيور من حوله صاحت، رفرفت بأجنحتها مهللة، في تضامن جماعي على أن تهزأ بالغراب وتتجنبه؛ لخياله الواسع الذي فلت زمامه، وترقبه من بعيد.

وضعته في مأزق، انتظروا أن يتحول أمامهم، وقفت في انتظار اللحظة التي سيتحول فيها إلى ذلك الكائن الخرافي، الذي لم تره.

صدمه ضحكهم، نعق وطار إلى ما وراء الجبل الأخضر، بحثاً عن مُحَولته، التي تتهادى في السهول الخضراء..))

* * *

حين رأى أفراد الرحلة منكمشين على بعضهم، بطريقة لم يرها من قبل، وخطوط الخوف والحذر تصبغ وجوههم، خاصة عندما رأوا الغراب الغاضب يطير فوق رؤوسهم، واصل حكيه، وعيناه عليهم، تترقبان ردة فعلهم فيما يسمعون، خاصة أنه مدرك أن حديثه ليس فيه إلا قدر ضئيل من الحقيقة:

- اعتادت حتحور كل صباح أن تخرج بزينتها من بيتها المتاخم للنهر، تنزل إلى الماء، ناظرة في الأفق البعيد، تتجول في الوادي، ترسل نعيرها في كل اتجاه، عند ذلك تهتز المروج الخضراء، تنبت الثمار، تمتليء الضروع باللبن، يجد الصغار والكبار الأكواب الصباحية ممتلئة، فيبدأ نهارهم بلون أبيض صاف، يملأ القلوب بالفرحة، التي تنتقل بانتظام على طول المجرى المائي المتدفق.

* * *

كان يحكي بتمهل، عيناه على ذلك الإنسان القديم، وفضاؤه الرحب يحوطه من كل صوب، فيستطيع أن يتحرك بحرية مطلقة،

حتى أساطيره وخيالاته لم تقابل الحواجز، وحلقت في سماء الكون دون عائق، إلى أن وصلت إلينا..

فما بال الإنسان اليوم كلما تقدم شبراً وضع المتاريس خلفه وتحته، عن يمينه وشماله، انطلاقاته المحدودة دائماً محبوسة في رأسه، يفسرها على أنها أضغاث أحلام مزعجة، أجساد كوابيس تطارده كالأشباح.

* * *

تهادى المركب على صفحة الماء الرائقة، دفته تتجه مباشرة إلى الشاطئ، ساحباً خلفه أفواجًا من ذكور الحيتان، فرِحة تتبع إناثها إلى مكان تنخفض فيه الأمواج، تلاصقت الحيتان وتعاركت في مرح، تقلبت مع بعضها حاضنة بطونها، ارتعشت مشبكة أذيالها.

منظر الحيتان أمامه، ذكره أن يحدثهم عن تلك الحيتان الحجرية، التي تنام في العراء، متخذة أشكالاً غريبة، تبدو للناظر إليها وكأن الحياة توقفت عنها فجأة في ذلك المكان، والماء انحصر عنها في غمضة عين، تاركاً إياها عارية، تشعر بالخجل لا تدري ماذا تفعل، تتخبط في موجات الماء الضخمة، وهي تنسحب في الأعماق، لتكشف القاع لأول مرة، ليغير خريطة الحياة تماماً، وينشر المخبوء في العراء، فقد حدث زلزال في المنطقة في زمن بعيد، هزّ الألواح الأرضية القارية الكبيرة، فتح الشقوق في باطن القاع المائي، فانحصر الماء بلا مقدمات، بقيت على وضعها، في واد سُمِّي "وادي الحيتان" تحجرت فيه من خجلها.

وصل إلى آذانهم صوت السواقي الرافعة للماء، الذي يغمر

المدرجات المجهزة للزراعة، ويعزف موسيقى مصاحبة، تلتصق بمناقير الطيور البيضاء، وهي تنقضُّ على ظهور الأسماك الصغيرة، وترفعها في الهواء.

* * *

بساط الحرية الناعم بسطوه تحت أرجلهم، فقد آن لهم أن يستريحوا، اقترب المركب من الشاطئ، نزلوا إلى البر، افترشوا الحشائش الندية، رقدوا على ظهورهم، راحت العيون تحتضن السماء التي اقتربت منهم ولامست رؤوسهم، شعروا بالسحب تمر من تحتهم، بدوا في هيئة طيور تسكن الهدوء، تمرح بانطلاق وحرية، لا شيء يعكر صفوها، ويسكت زقزقاتها، لا شيء يمنعها عن شدوها.

وهدير الماء يأتي من شلال وادي الريان، يصبّ في البحيرة على مقربة منهم، في منظر خلاب، جعلهم يذهبون إليه ويقفون أمامه طويلاً، وأفواج من رحلات مدرسية أخرى، وجنسيات مختلفة، واقفين في مجموعات أمام انحدار الماء، كاميراتهم مدلاة من رقابهم، تتصدر أعينهم لحظات حاسمة، ستظل باقية في وجدانهم.

نزلوا إلى الماء، تركوه ينساب فوق أجسادهم، وهم سعداء وفرحون، وجيوش أسماك السلامون اللامعة، وأبو منقار تتكتل تحت أرجلهم، موجهة زعانفها، ومناقيرها، عكس انزلاق الماء الجارف، محاولة الثبات في مكانها، والتشبث بوخز البلل المنعش.

بينما هو واقف اقتربت منه فتاة نضرة، تكاد الدماء تنفر من

بشرتها، أخبرته أنها جمانة، حدثته عن نفسها، عن شوقها إليه، وهي تتفرس في ملامحه، كأنها تبحث عنه منذ ولدت، والبريق في عينيها يكاد يطغى على ماء الشلال، كانت حرارة انجذابها إليه لا تهدأ، وصلت إلى حد جعلته يخجل من تلاميذه ورفاقه، فقد تركت رحلتها، أصبحت ملاصقة له، تستمع إلى إرشاداته، وحكّيه تاريخ المنطقة، راحت تلتقط له الصور، تحت إصرارها على عدم تركه، أعطاها عنوان بيته.

* * *

رأى تلك الأفواج تنهال بعدساتها، تلتقط الصور الملونة بالبهجة، تقبض على تلك اللحظات وتحبسها في صدرها، لتصبح زاداً متجدداً يعينها على مواصلة رحلتها.

اكتشفوا في الفضاء الرحب نقطة للانطلاق، يمتصها مؤشر قلوبهم في سجله الخاص، عندما فرغوا من مهرجان الذكريات والتصوير، أخرج الكثير منهم أقلامهم، سجّلوا بعض التواريخ، خَطّوا مشاعرهم، ترجموها إلى كائنات مستكينة، ستتحرك بحرية في لحظة ما من حياتهم، ستعيش معهم في مستقبلهم، تذكرهم بما رأوه في رحلتهم.

* * *

قرروا البقاء فترة على شاطئ البحيرة، نصبوا الخيام بالقرب من الأشجار والحشائش والأحراش الكثيفة العالية، التي تحيط المجرى المائي المتصل بمنبع الشلال، والممتد في صحراء الفيوم، نهير صغير للغاية، يتبختر ماؤه على مهل، مخترقاً الرمال المغلفة

بحبيبات الطين، والشمس تعلو في فراغ السماء، تنشر دفئها باتساع المدى، وتملؤه بالطيور.

* * *

خرجت البنات، كل منهن ترتدي حريراً زاهياً، مبرقشاً بأشعة قوس قزح، على وجوههن ابتسامة حلوة، ملوحة بالسحر والمرح، أخذن في الدوران حول أنفسهن، والرقص على إيقاع دقات الكفوف والصفير المنتظم، وقرص عباد الشمس من أعلاهن يتمايل ويختال بخفة، يظلل مفرش الرمل، ليبقيه بارداً وطازجاً تحت أقدامهن، ملأت الصدور والوجوه بالراحة، والانسجام، والصخب الأنثوي الجميل، وهن يرقصن ويتمايلن بخفة ودلال.

بدا الكون كله متوحداً، فإيقاع الإنسان متشابه من أول الدنيا إلى آخرها، فمنذ خمسة مليارات من السنين، لم تكن الأرض سوى جزء من سحابة هائلة من الغبار والغاز، تدور في الفضاء، تكتلت السحابة مع بعضها وتمركزت في المنتصف تماماً، مكونة نار الشمس، وبدأت قِطع من تلك التكتلات تتجاذب أكثر مُنتجة الكواكب، ومنها الأرض التي كانت يابستها في الأزمنة السحيقة قطعة واحدة، سكنها شخص واحد، أنتج عائلة واحدة تشعبت في الاتجاهات الأربعة، وحين غطت المياه اليابسة، وتكاثرت الزلازل، اضطرب الكون، تقطعت الأرض إلى القارات، تحركت كل قارة بمن عليها، وما فيها في اتجاه مختلف، وما أن نسى الإنسان - كعادته - ما أصابه، ومَن فقدهم، حتى بدأ يستقر من جديد، ويتأقلم مع المكان الذي أصبح فيه، فالكون يمكن أن يختصر إلى

صفحات قليلة، إذا تجاهلنا التكرار في الأحداث، بصوره المختلفة.

* * *

بعد أن انتهت البنات من ضحكهن، ورقصهن، وتمايلهن على إيقاع أقدامهن، خففن ملابسهن، قفزن إلى الماء، رحن يسبحن، يجدفن بأذرعهن، يضربن الماء بسيقانهن، وضحكهن يختلط بالهواء والرذاذ، الذي يرعش الماء حول أجسادهن، يرغي و يزبد، وهن يتقلبن على ظهورهن، يطفين في هدوء، كأسماك تلتذ بأشعة نهار مشمس، في يوم من أيام فصل الشتاء.

كن يشبكن أصابعهن مع بعضهن وهن ملتفات في دائرة كبيرة، يراها الناظر من أعلى إكليلاً من الزهور المتفتحة، هائماً على سطح البحيرة، وهفهفات الهواء تنشر أريجها، تضخه في رئة الكون.

بعد أن ألقت كل بنت إلى قاع البحيرة، ما لديها من أسرار وأحلام وأمنيات تود رؤيتها حول عنقها، خرجت كل منهن في إثر الأخرى، وقطرات الماء تتساقط منهن على الرمل فتحيله إلى فضة مذابة، تجعلهن كائنات مرمرية لوحتها الشمس، وأنعشها الهواء المشبع باليود.

دخلن إلى الخيام، سترن وجففن أنفسهن، أقبلن بشهية على سلال الفاكهة، رحن يلتهمنها مقبلات على الحياة بشغف، ومرح، وحب.

بعد أن تخلصن من آثار الرحلة، وتراب السفر، أطلقت كل منهن خيالها إلى السماء لتقبض على يد نجمها، تسافر معه في أحلامها على موج السحاب الناعم.

* * *

هناك، فوق طبقات السحب المتراصة كمراتب إسفنجية، وجدت البنات وردة عملاقة بحجم الكون، تُنّبت القلوب الوردية. حين لمسن تلك القلوب، رأينها تتحول إلى فتيان، وكل يذهب إلى من لمسته ومسته بوجهها، يحملها على ظهره.

تضع البنات أيديهن من تحت أجنحة الفتيان، مباشرة تقع أصابعهن على قلوبهم، يسافرون معهم إلى تلك النجوم المتلألئة بحبهن، الذي يرفعهن عالياً، يضعهن على ماء النهر الوردي، يركبن مراكب على هيئة الأوز الطائر، يجدفن بشعورهن إلى منبع الأسرار، في جو ساحر معبق بالبخور والياسمين، دافيء بالبخار المنبعث من وهج حبهن.

* * *

ترك البنات تستجم فترة، وهو يرتب مع رفاقه والفتيان بعض الأمور لمواصلة الرحلة، أطلق لهن العنان، ليجرين وراء خيالاتهن البعيدة، تلاقت الأرواح التواقة إلى الحب، حلق كل حبيبين في اتجاه، وهما يفضيان لبعضهما عما لاقياه، ما عذبهما في وحدتهما، ما شتّتهما مع الآخرين بحثاً عن بعضهما، ما مر بهما وهما ساهران ومنتظران أن يتلاقيا.

* * *

لم يبخل على نفسه ببعض الراحة، نام على الرمل، فارداً ذراعيه على الجانبين، أغلق عينيه، استنشق الهواء بقوة أنعشته من الداخل، في الأعلى رأى البنت جمانة تطوف حوله، محاولة الوصول إليه، جدف إليها، تقابلا في نقطة هي مركز الروح، شعرا أنهما يعرفان

بعضهما قبل أن تنتثر النجوم في سماء الدنيا الواسعة، فَهِما أن لكل منهما نافذة، يطلّ منها على الآخر، فتح رموشه، زغللت الشمس رؤيته، أغمض جفونه، رآها تعاوده، تقترب منه برفق، تلمس وجهه المتعب، سحبته معها إلى الأعلى، فتحا نافذتيهما ليطلا على بعضهما دون حُجب، عاشا معاً دهوراً سجلتها الحفريات في طبقات مطمورة، قبل أن تتغير الدنيا، وتبذرهما في أرضها، في اتجاهين متباعدين من تربتها، فتكونا في ظروف مختلفة، وعائلات متباينة، ربما لم يُقدر لها أن تجتمع مع بعضها، فكان عليهما أن يبحثا عن بعضهما، كان عليه أن يفتح قلبه لها، أن يترك نافذته مفتوحة ليتسرب منها دفء الحب إلى حياته الباردة، دون أن يعبأ بحياته الفائتة، أو يتوقف عند تفاصيل باهتة، تفرز المرارة في حلقه، وهو يتذكر طفولته التعسة.

* * *

طلاء الوجوه لا لون له، خاصة إذا ما حاول أن يمنطق أشياء حوله يراها مزعجة، ويراها الآخرون طبيعية لا ضير منها، فقد خرج من صلب ساهر، الرجل المغامر، الذي لا يركن إلى الثبات والوقوف في مكان واحد، أو الالتزام بعمل دائم، تحركه رغبته الدائمة في تغيير أي شيء يصل إليه، حتى انتهى به المطاف إلى أن يتنقل بين المقاهي، لقضاء أطول وقت ممكن في لعب الكوتشينة، تدخين الجوزة المطعمة بالأفيون، دون أن يعبأ بأحد، أو يهتم بمن يعيشون معه، يجمع حوله رفاقه تحت سحابات الدخان الأزرق، يسرد حكايات مختلفة من هنا وهناك، يبتكر المواقف التي تجذبهم

إليه، يلقي الآلاف من النكات في كل جلسة، ويكررها في كل يوم، فيضحكون، كأنهم يسمعونها للمرة الأولى، في سهرة أشاروا عليه أن يرشح نفسه لمنصب العُمدِّية، فغر فاه من الدهشة، فكيف لم تواته تلك الفكرة من قبل، كبرت المسألة في رأسه، ومع أصدقاء الدخان خطط للاستيلاء على المنصب، بدا الأمر لهم كأنهم ثوار سيغيرون حال الدنيا، يرتقونها بالعدالة المفقودة، استغل غياب العمدة في سفر إلى ابنته المتزوجة في بلد بعيد، أشاع أنه أوكله مكانه، سرب الخبر بين أهل القرية، عن طريق أصدقائه، رواد مقهى "الشباب"، الذي يجتمعون فيه لقضاء الليل، جند تاجراً من تجار الأفيون لتوفير كمية كبيرة، أشعلها في جلساته مع الخفر ورئيسهم، بدأ الناس يتوافدون عليه لفض النزاعات، فيضفي على جلسات الصلح المرح والدخان، يخرج المتخاصمون متصالحين، ومنسجمين مع بعضهم، ويجد كل ذي حاجة حاجته مقضية، وصل الخبر إلى مركز الشرطة، فانتقل المأمور على الفور إلى القرية، قبل أن يسأل عن شيء، قدم له هدية موثوقة في الحبال، أحد المطاريد الذين قتلوا ضابطاً وهربوا، ولم يستطع العمدة أن يقبض عليهم، ركب المأمور ومن معه العربة، عاد مصطحباً القاتل في الصندوق الخلفي، متوعداً العمدة الغائب، الذي لم يخبره بسفره، وغيابه عن مكان عمله.

* * *

تركه أبوه ساهراً وحده إلى جوار أمه المستكينة، التي لا يُسمع لها صوت من فرط هدوئها، فدفعه إلى العمل وهو في سن

العاشرة، صبيًا لنَقَّاش أشفق عليه، أراده أن يترك مدرسته ليعلمه أصول المهنة كما يجب، لكنه قاوم بصمت، أصر على أن يستمر، جامعاً بين الدراسة والمهنة التي شربها بسرعة، فصار يحصل على مال كاف لتعليمه، ولغناء أمه عن سؤال الآخرين، وجد متعة كبيرة في تزيين الواقع بالألوان، والنقش على الجدران بفرشاة لينة، تطمس آثار وخربشات أسنان الزمن المتوحشة، المحفورة بعمق في نفسه.

في إحدى المرات رآه زميله في الفصل حين مر به في فترة العصر، يحمل بعض علب الطلاء، ملابسه منقوشة وملطخة بألوان مختلفة، بدا فيها كبهلوان، أخرج له لسانه بحماقة، وألصق له ذيلاً ورقيًا، شعر بالخجل يغرقه في الطريق، وقعت منه علبة طلاء وانفتح غطاؤها، اندلق الطلاء الأحمر وسال على التراب، راسماً ذيلاً دمويًا في اتجاه زميله، الذي جرى منه مسرعاً، حين شاهد بركان الغضب يُدخن في وجهه الحليم، لحق به، أمسكه من ذراعه الأيمن، لفه حول خصره، ألقاه أرضاً، داس على رقبته، حتى تلاشت مقاومته، فتركه ومضى دون أن ينطق كلمة واحدة.

كانت المرة الأولى التي يفقد فيها سيطرته على نفسه، لكنها طارت بين الزملاء، نبهتهم إلى الوحش النائم في داخله، الذي سيهب إذا استثاروه، فابتعدوا عن مضايقته.

لم يمض وقت طويل حتى ذهب إلى زميله، الجالس في الصف قبل الأخير، اعتذر له، دعاه إلى مشاركته اللعب قبل العودة إلى البيت بعد انتهاء اليوم الدراسي.

منذ ذلك الوقت قرر أن يمشي مرتدياً ملابسه النظيفة بشكل

دائم، يحمل ملابس النقاشة في كيس أسود، ويبدلها في مكان العمل.

* * *

انتابته الرغبة في التمرد على المسار اليومي الذي يسلكه بشكل آلي، دراسة في الصباح، عمل بعد الظهر، تعب ومذاكرة في المساء، خرج بعد الحصة الأخيرة مع زميله إبراهيم، الذي تعارك معه من قبل، ملبياً دعوته للّعب معه، في مباراة لكرة القدم أمام المدرسة بين فصله وفصل آخر، وضع حقيبته "السمسونايت" التي اشتراها من ماله، كقائم خشبي على يسار حارس المرمى، بعد بدء المباراة بعشر دقائق أحرز خلالها هدفين، صدّ الكثير من ضربات الخصم، تعلل زميله بالتعب، طلب من حارس مرماه أن يدخل إلى الملعب، ويترك مكانه له، كان اللعب حامياً، والملابس المدرسية تحولت إلى خرق غارقة في العرق والوحل، في هجمة للفريق المنافس، طار الزميل على الكرة العالية، نزل بكل جسمه موجهاً كوعيه في بطن الحقيبة، فأحدث صوت تكسير عالٍ، جمع الفريقين حوله، لرؤية فُتاتها منثوراً فوق الكتب والكراسات، بدا الارتباك واضحاً على وجوه اللاعبين، لكنه نظر إلى وجه زميله، محاولاً قراءته دون الطلاء الذي يغلف وجهه، تسرب إليه إحساس بأن إبراهيم فعلها عمداً، عقاباً له على طرحه أرضاً من قبل، ابتسم مبدياً عدم اهتمام، دخل في الضحك والقهقهة عندما وجد الزملاء يحملون إطار الحقيبة الفضي من اليد المعدنية، خاوياً من أي شيء يرتبط به.

* * *

رجع العمدة المسافر من عند ابنته، لم يجد شيخ خفره ورجاله في انتظاره، وصل إلى أذنيه ما آل إليه حال القرية في غيابه، جن جنونه، اشتعل رأسه، أرسل في طلبهم، فامتنعوا وهم يقهقهون، عزلهم جميعاً، وعيَّن غيرهم، لكن الناس تجاهلته، صارت تذهب إلى ساهر لحل مشاكلها، حين وجدهم حوله تفنن في زرع الطمأنينة في قلوبهم، أصبحت سيرة القرية على كل لسان، فريقان يحكمانها، أحدهما يأخذ الأمر للتسلية والمزاح، والآخر مسألة حياة أو موت، بعد أن سُلبت منه سلطته، واهتز وضعه عند المأمور المشغول بالتغييرات الوزارية الشاملة، التي تمت مرتين في ثلاثة شهور لا أكثر، ولم يستقر الوضع بعد، واحتمالات التغيير ما زالت قائمة أكثر من ذي قبل، فالمأمور في حاجة لترتيب نفسه مع المسئولين الجدد، فما سيضيره من قرية مهملة، وجد أهلها ضالتهم عند واحد منهم، يعاملهم بآدمية، بلا طغيان، أو أوامر واجبة التنفيذ، لم تمل عليه السلطة شيئاً لتنفيذه، لابد أنه سيكون في صالحهم.

* * *

حمل كتبه المدرسية على كتفه، استقبله الأب ساهر على باب البيت، عَنَّفه بقسوة شديدة، أراد أن يصفعه على تركه ليوم يمر دون أن يذهب إلى العمل، لكنه أسرع إلى الداخل ساخطاً، ألقى حمله وصعد إلى السطح، نام على القش، أتت أمه خلفه تحمل له الطعام، وتُهدىء من غضبه، تبث الابتسام في وجهه، قالت:

- ألن تُطير طيارتك الورقية، التي لم تطر منذ أن صنعتها؟!

- بلى.. معك حق.. لم أجد وقت فراغ لأمارس هوايتي المحببة.

- هيا تناول طعامك، سوف أحضرها لك.

* * *

أرسل المأمور إلى ساهر، فذهب من فوره، جلس معه فترة يضع له خطة، لتثبيته مكان عمدة القرية، أملى عليه ما يجب فعله، حتى يحين موعد اختيار العُمد الجدد، بعد خمسة أشهر، دَخَنا معاً في المكتب، خرجت ذيول السحب الزرقاء، من بين الأسلاك الحديدية، تبحث عن أنف تستنشقها، وتريحها من التحليق بحبسها في الصدر، وتسريبها إلى المخ.

قبل عودة ساهر لقريته مشى في أحد شوارع المدينة، وقف أمام بيت له حديقة واسعة، جذب انتباهه سلعوة نائمة تمدد قدميها أمامها، راكنة رأسها على مخالبها، مغمضة عينيها، رفع حاجبيه لأعلى، حكّ رموشه، دفع البوابة فانفتحت، دلف إلى حجرة البستاني، الذي استنجد به، لمساعدة أهل البيت.

* * *

أطلق الخيط للطائرة الورقية الملونة، علت فوق الرؤية، تموجت وهي تشده إليها، محركة ذيلها حتى استقرت ثابتة، مع نهاية خيطه، نام على ظهره، مرر الخشبة القصيرة التي يلف عليها الخيط المشدود، المثبت فيها نهايته بين إصبعي القدم اليمنى الكبيرين، تركها بينهما، تقلب في القش، لف قدمه وهو يلعب مع نفسه، جذبها إلى صدره، أعادها مرة أخرى، اطمأن إلى أن الطائرة تحت سيطرته، كتب أمنياته ورسم بعض الرسوم في قطع من الورق الأبيض المقوى، ثقبها من المنتصف، أفلت الخيط فيها، بسرعة جرت الأمنيات إلى قلب الطائرة عبر الخيط المشدود، أغمض عينيه

وهي تلامسها، وتُذَوِّبها مع الرياح، تراخت أعضاؤه من التعب الذي لاقاه في يومه الطويل، أفلتت الخشبة من بين إصبعيه، مطلقة السراح فجأة للطائرة، التي بدأت في التهاوي، اشتبكت الخشبة في فرع خشبي يُعرش سقف الجيران، لم يصدق نفسه، بدأ له السطح المقابل قريباً، دون أن يفكر تراجع إلى الخلف، قفز.

* * *

اتفق العمدة المسروقة منه هيبته، مع تجار في المدينة على الإيقاع بالعمدة الجديد ساهر، دبروا خطة بتمويل من العمدة القديم، أقنعوا ساهراً بفتح "بازار" لبيع التحف واللوحات، في محل يملكونه في سوق المدينة، طلبوا مشاركته بأفكاره فقط، والتفرغ له، أعجبته الفكرة، تحمس لها بشدة، أسقط موضوع العُمدِّية من رأسه، تحمساً للمشروع الجديد، الذي رآه يناسبه أكثر، خاصة أنه لن يخسر مالاً، ولديه من الوقت الكثير، الذي لا يعرف أين يقضيه، اتفق مع تاجر الغلال - الفنان في أوقات فراغه -، والذي خلصه من قبل من السلعوة الشرسة، على عرض أعماله الفنية، وبيعها له، بعد الافتتاح بأسبوع نفذوا خطتهم، أبلغوا عن قطعة أثرية مسروقة دسوها له، ذهب على أثرها إلى السجن.

* * *

شهر كامل مر عليه وذراعه الأيمن في الجبس، نتيجة لسقوطه في منتصف الشارع، وفقده طائرته الورقية، التي ظلت محلقة في الجو بعد اشتباك خيطها لأكثر من ساعة، تطلعت بعينيها المرسومتين باللون الأحمر، لم تجده، رقصت بذيلها القماش، بحثاً عنه، رأته

محمولاً على كتف رجل، يمرق به في اتجاه المستشفى، بكت، أغمضت عينيها، فاجأها صاروخ ورقي من فوق سطح آخر، يصعد ناحيتها، لم تراوغ، تركته يلتف حول عنقها، ويجذبها لأسفل.

* * *

النافذة

ماء الحب المتدفق في قلبي دفعني إلى التريث، والتساؤل عما حدث بيننا، الوقوف على تفاصيل العلاقة بكل ما بها، لأنني لم أر جمانة لليوم الخامس على التوالي، تلك هي المرة الأولى منذ تعارفنا، فترة طويلة مرت ولم نختلف مرة واحدة، حدث أن اختلفنا بسبب سوء تفاهم بسيط - رأيته أنا كذلك، رأته هي أنه القشة التي قصمت ظهر البعير - انطلقنا كلّ في اتجاه بعد مناقشة حادة، إثر إصرارها الدائم على معرفة تفاصيلي العائلية، التي لم أكن بعد قادراً على البوح بها، خاصة بعد معرفتي بظروف نشأتها المدلّلة، واتجاه أبيها المادي إلى أقصى حد، رغم ما يبديه من تجاهل لتلك الأمور، كانت بي رغبة أن أسوسَهُ لعله يرجع عن رفضه، الذي أبداه في أول لقاء، ولم أستطع أن أخبرها به، فضلت أن أتركها تأخذ انطباعاً بعدم اهتمامي، كأنني لا أرى شيئاً من مشاعرها، كأنني غريب عنها، تعاملت معها ببرود راكم الثلج على وجهي، وعلى قلبها المتقد بالحب، تركتها وأنا مؤقن أن ذلك سيمرضها من فرط رقتها.

* * *

شرد رأسي في منحنيات، وأودية، وسهول.. رأيت دوامة الغضب تقوم من رقدتها وتملأ الصدر، انطلقت بعد انتهاء فترة العمل، مع زملاء لي يسكنون في جبل "المقطم" إلى مكانهم، كانت بي رغبة للمشي قليلاً. كانت الشمس في نهارها تسكب وهجها بلا رحمة، زادتها جفافاً وقسوة تلك الريح المحملة

بالرمال، كونت كثباناً رملية سدت علينا الطريق، كادت تغرقنا.. هربنا من الجبروت العاصف، دخلنا في بطن كهف ناتئ كسنام جمل باق من عصر الديناصورات، أردنا أن نحتمي من تلك الهجمة الشرسة لسيوف الرمل، بالالتفاف على أنفسنا، ارتكنّا على كتلة صخرية، تحركت بنا قليلاً، محدثة صوتاً لفت الانتباه، سرعان ما تجاهلنا ما حدث، ألقينا ظهورنا فوق تعبنا وإرهاقنا، مالت رؤوسنا إلى الخلف، وهي تشد النوم من السماء وتزرعه في أعيننا، فجأة انهارت أمامنا كتلة من الصخر، من ارتفاع شاهق، هزت ثبات الجبل تحت أقدامنا.

شعرنا بحركة الصخرة التي ارتكنا عليها، وهي تنزلق مندفعة إلى الداخل، ونحن ننسحب خلفها، يجذبنا الهواء المخلخل، يلقي بنا إلى فتحة ضيقة، انزلقنا إلى ممر معتم، وبمجرد أن أصبحنا فيه عادت الصخرة، أغلقت الدهليز الذي سُجنّا فيه. تحسست وجهي وجدته متورماً، لا يثبت على حال، أنفاس الآخرين تلفحه بزفيرها الساخن.

* * *

تحركنا في البقعة الحالكة السواد، التي حوصرنا فيها، حتى برز من بعيد سن ضوء يومض لنا، رأيت الحدّ الفاصل بين الظلام والضوء، كنصل سيف لامع حين اقتربنا منه أكثر، وصلنا إلى النور ونحن نتخبط، أصواتنا ترتد إلينا، كأنها شربت من بوق عملاق، وجدنا جدول ماء يتصاعد منه البخار.. اقتربنا منه فرحين، غير مصدقين، ألقينا الدهشة خلفنا، غبّنا أيدينا وشربنا، رطبنا وجوهنا،

تجرأنا أكثر فنزلنا إليه بملابسنا..

أراحنا الماء من العذاب الذي لاقيناه، أنسانا ما أصابنا، ما مررنا به من أهوال.. غفلنا عن اكتشاف المكان الذي صرنا إليه، ساعة أو ساعتين أو يومًا كاملاً، لم نشغل رؤوسنا بشيء، فقط تركنا أجسادنا في الماء الدافئ، حتى تخلل مسام الجلد، خدر الحواس بنعومته، بعد ذلك خرجنا منه لا ندري شيئاً عما نمر به، هل هو حقيقة أم محض خيال كونته الشمس في أدمغتنا؟، ونحن نجلس على "كورنيش" المقطم في يوم حار، مشينا إلى مشعل الضوء، شممّنا هواء معطراً، زدنا من شهيقنا، شعرنا بالهواء يدور حولنا، يحملنا في مروحته الضخمة، جفت ملابسنا، أصبحنا في هيئة تليق بمقابلة ملك.

* * *

كنا أربعة، اقترب مني أحدهم، صار ملاصقاً لي، الآخران اندمجا في حوار تمثيليي أشبه بالهذيان بصوت عالٍ، تاركين روحيهما بحرية تامة على سجيتهما، يقولان كل ما يخطر ببالهما، حين عبرنا الباب في نهاية الممر، رأيت صبياً صغيراً باسماً، متورد الوجنتين، ناعم الشعر، يلتف بإزار من الحرير الأزرق السماوي، حول عنقه يلتف عنقود من اللؤلؤ، تخرج من شفتيه كلمات هامسة، أصغيت إليه فكانت أشبه بأغنيات لم أسمعها من قبل، لكنها لمست أوتار قلبي بلطف، لم أشعر بمثل حلاوته في حياتي، أشرت إليهم أن ينظروا إليه، لكنهم تجهموا، قائلين:

- أين هو؟

ضحكوا معتقدين أن سهم الجنون أصابني، قالوا:

- دائماً ما ترى أشياء لا نراها .

انحنى الصبي دافعاً لنا بقارورة وردية، أشار إلينا أن نصبّ منها قطرات على هاماتنا، نمسح بها شعورنا، فعلت، وفعلوا خلفي طائعين ومسرورين.

وبينما أضع منها في كف يدي، رأيت حبيبتي جمانة، سمعت صوتها يلمس قلبي ويهزه.. قالت:

- حبيبي إنني أحتضر الآن، أتيت إليك لأودعك.

ارتجف صوتها بعد أن شق قلبي نصفين، صرت أهتز وأرتعش بعنف.

- تماسكي يا حبيبتي وأخبريني ماذا بك.

- إنني أشعر بمخالب الموت، متشبثة برئتيَّ، قابضة ضلوعي.

زعقت بقوة:

- واحبيبتاه...

دوى الصدى في الممر، رجّ الجبل، وجدتني أندفع بسرعة، أخرج إلى فضاء الصحراء الواسع.. صعدت إلى أعلى، وقفت على القمة، تعلقت بذيل سحابة، صرت أنفخها بعزم من كل جوارحي، أدفعها لكي تلبي ما في صدري..

حملني الحب على بساطه الساحر، حررني إلى ما أصبو إليه، أسكت علامات الأسئلة، التي التفت حول شعري..

كيف طرت؟

كيف رفعتني ذراعاي؟

كيف وجدت عينيَّ كمنظار فلكي أبحث به عنها؟

كيف عدت؟

كيف تلاشى الغضب؟

كيف نزلت من المقطم؟

كيف اختفى الجبل من أمامي في لحظة؟

كيف تبدلت ملابسي؟ وعادت لما كانت عليه في الصباح، لا أثر فيها للأهوال التي شعرت بها.

كل ما أدركته أنني وجدت نفسي أنزل من عربة، أودع الزملاء، وأذهب إليها.

* * *

تركني أبوها أدخل عليها، وهي نائمة على ظهرها في انتظار الموت، وقفت أمامها متأملاً، فلمّا أبصرتني رفعت يدها لتستقبل يدي الممدودة إليها، وكانت أوراق وردة مطحونة في قبضتي، تناولته وقربته من عينيها، أشارت إلى شعرها..

ملست بأصابعي المرتجفة على رأسها، مِلّتُ إليها أدلك شعرها، أدفئ فروتها حتى تماسكت، جلست جانبي وابتسامة دافئة تشع من نواغزها التي توردت، بدت متعافية تماماً.. سألتني:

- من أين أتيت بها؟

حاولت تذكر المكان، فلم أستطع تبين ملامحه.

- لا أدري من أين.!

- لقد احتار الطبيب في أمري، تركني بعد محاولات كثيرة لاستشفائي.. لنقص الدواء في الصيدليات، لكنني بالأمس فقط، حلمت أنني أسبح في نهر وردي، ماؤه ليس كالماء، لأنني كنت أشعر بكثافته وهو عالق بي كالجليسرين، وصحوت أتحسس شعري، وجدته جافاً، ازداد يأسي، فأين السبيل إلى ذلك الطريق

البعيد، وأنت لم تكن هنا.

* * *

عانقتها، احتضنتها بقوة، فزعت مخالب الموت، طارت بعيداً، بعد أن رأت قلبين متناجين وملونين برائحة ورد الحياة.

* * *

المتوهج في حبه يرى الدنيا اثنين فقط، هو طرف، وحبيبته الطرف الآخر، استعرت قلب ذلك المتوهج، قلت لها وهي تبسط كفيها في كفيَّ:

.. منذ الأزل،

وكلانا يبحث عن الآخر،

في أحراش الدنيا، وغابات الشجر..

.. منذ الأزل،

وأنت أنت تذوبين رقة، وتتوهجين حناناً،

ولا تخدعك أقنعة البشر..

* * *

سألتني جُمانة بكل هدوء عن تفاصيل الوقت، الذي قضيته بعيداً عنها وأنا غاضب منها، وقفت أمامي، قالت:

- هيا أخبرني.

أرادت أن تشاهد ذلك أمامها مجسداً على ملامحي، نابضاً بالشوق إليها - آه يا قلب حين تقع تحت سيطرة دلال النساء - صاغراً أو محباً فلابد من أن أستعيد ذلك الذي مر، ألونه بالشعر، مهما كان ألمه أو فرحه.

قلت مشيراً إلى الشمس، وهي تتسرب خلسة من المشهد، تاركة

ستائر الليل بهدوء:

- هل رأيت الأحلام، وهي تختفي في السواد المنسكب فجأة؟

هل رأيتني أجدف بذراعي، محاولاً بجدية التشبث بك، والفرار بعيداً عن سيطرة الوهم؟

هل توصلت مثلي، إلى أن كلينا أصبح ضروريًّا للآخر بشكل مزعج ولذيذ؟

فبالله عليك، لا تتوقفي كثيراً أمام أشياء مرت، حياة مضت، لا تسألي عن تفاصيل لا محل لها بيننا، بالأمس وضعت أصابعي في فضاء الكون، لمست الخيط الرفيع الذي نبت بيننا لأول وهلة، وتضخم سريعاً في القلب حتى أصبح بعمر نجمينا، الساهرين على حراسة روحينا منذ خلقهما الأول.

* * *

دغدغت الكلمات حواسها، لم أجدها حاضرة، نامت مني، وأنا منشغل بتتبع لقاءاتنا الأولى..

هل أنا أيضاً نائم؟

مستيقظ؟

هل أحلم؟

أين قدماي من الأرض؟

لم أعد أشعر بشيء..

فقط قابض على روحي وروحها التي تعانقني بأصابع لا مرئية، تخلطهما معاً، فالقلب حين يحمل الإنسان على أجنحة الحب تتلاشى جاذبية الأرض، يصبح منجذباً بكل قوة تجاه النجوم.. يتلاقى الجسد والروح ليذوبا في أتون الأشواق، وتخرج رائحة

الحب مضيئة تنير الدنيا للنابعين في نفس الدرب.

* * *

في نافذة غرفتي وقفت أراقب النجوم، محاولاً الوصول إلى السر وراء انتثارها هكذا في الفراغ، توصلت إلى علاقة ما تحكم المسافات بين بعضها، وإلا لماذا تقف تلك النجمات الثلاث هكذا؟!، وتنتظم في خط مستقيم، عن يمينها نجم، عن يسارها نجم، على امتداد الخط المستقيم يظهر آخر، أكثر ضوءاً، وأشد بريقاً، حوله هالة شديدة من النور.

احتوت عيناي كل ذلك، رأيت مثلثاً كبيراً رأسه ذلك المتوهج..

إلى أي شيء يشير ذلك المثلث؟!

وماذا عساه أن يخبرني؟!

تلقائيًّا وقفت على حافة النافذة وانطلقت تجاهه.. كنت في حالة تأمل رفعتني إلى أعلى، فتلاشى جسدي.. كنت أستطيع أن أقبض بيدي على الضوء الآتي من النجوم المتناثرة، أتنقل بينها بخفة ومرح، أسرع من شمبانزي صغير يتأرجح بين فروع الأشجار في غابة كثيفة.

ظللت مسافراً نحوه دون كلل أو ملل.. قبل أن أصل إليه وألمسه، وأقف على حقيقة ما عساه أن تخبرني به طلعته، أتت سحابة ضخمة، بحجم الدنيا وحجبته عني، أصبح غيابه أمراً واقعاً.

تحايلت بكل الطرق أن أنفذ إليه من خلالها، تلك التي أسميتها سحابة الغياب فلم أقدر..

أوشكت أن انفجر تحت ضغط الصبر، لكن كيف أصبر أكثر من

ذلك؟! الجحيم داخلي ومن حولي، ينتفخ بهواء القلق والتوتر، كيف أظل ثابتاً؟! الكون يتهدم فوق رأسي، كيف لا أراه واضحاً؟!، وهو الذي حررني من نفسي، وهبني متسعاً لا نهاية له من الأحلام.. كنت عاجزاً عن فعل شيء حيال غيابه، أحسست أن ظهري يجف ويتصلب، أطرافي تنكمش وتنسحب..

حالة من اليأس، جعلتني أشبه بسلحفاة يائسة من طول عمرها، الذي تحمله تحت درعها، تئن من ثقل الأفيال الأربعة الواقفة فوقها، وعلى ظهورها ترقد الأرض بيابستها، أنهارها، بحارها، محيطاتها، حيواناتها، حشراتها، وبشرها، صارت متخشبة، لا تقدر على رفع ساقها والتقدم خطوة واحدة، وقعت بين أذرع أخطبوط جائع، فانقلبت على ظهرها، مغلقة نفسها على آلامها.

* * *

.. كيف اصطدمتُ بالأرض هكذا؟! بكل هذا العنف في غمضة عين.

"إنه السقوط في بئر جاف، وكل ما عليك أن تفعله وأنت دون حب أن تغلق عينيك وتترك نفسك"..

ذلك ما بدا عليَّ، وأنا ملقى على أرض باردة في العراء، ممزق الإرادة، أحدث نفسي الزاحفة على الثلج:

"فقط لو يظهر نجمي..

لو أراه..

لو أعرف أين هو..

أو ماذا حدث له.."

رأيت أكواماً من الثلج تتراكم فوقي، تغطي البيوت والجبال.. رأيت الأشجار تلفظ أوراقها في موجات البرد، حتى صارت عارية من أخضرها، الناس تلاشت من ذاكرتي، هربت، فلم أعد أرى أحداً.

ألف عام مرت ولا أعي ما حدث، حتى تحركت سحابة الغياب، بدا من بعيد ضوء النجم المتوهج ينفلت إليَّ، انتفضت مكسراً كتل الثلج من فوقي، صعدت إليه..

رأيت حبيبتي المبتسمة في فضاء الكون، نورها يلمس أوتار قلبي، يملأ الدنيا بالموسيقى والمرح..

كيف دبت فيَّ الحياة هكذا؟

كيف أصبحت على النقيض؟

كيف لم أقابلها بما فعلته بي؟

كيف لم أتركها وحيدة بعض الوقت؟

لم أجد في نفسي غير أن أحتضنها، أرتاح إلى جانبها، ناسياً كل قلقي.

* * *

أخبرتها أن الأشباح اجتمعت عليَّ، قيدتني بالأرض، ألجمتني، خنقتني بأشكالها المرعبة، وحين رأيت نورها أمسكت به، رحت ألفه حول رقاب تلك الكائنات، أشنقها، وأتركها معلقة بين السماء والأرض.

* * *

بعدما استمعت لحكاياتي، أطلقت حصان الضحك إلى سباق

القهقهة، أخبرتني أنها تعرف أنه يجب عليها أن تبوح لي بما تخبئه عني، لكن لابد أن أمهلها بعض الوقت، حتى تكون مستعدة تماماً للمصارحة التامة.

* * *

حاولت أن أرتب نفسي، مطمئناً إلى وجودي جانبها، كل يوم أقف على حافة النافذة في نفس الموعد، أمامي تلسكوب ضخم، أرى من خلاله نسيج السماء، المكون لصخور "الكمبرليت"، الذي يحوي الماسات النجمية المتلألئة.

* * *

أمسكنا بطرفي الروح، ونحن نكتشف حقيقة النجوم من حولنا.. حقيقة الإنسان.. أصبحنا شغوفين بأن نعرف أكثر.. أن نرى الحقيقة من خلف الأشياء.. نراها في النور الكوني.. فلكل إنسان نجم، ولكل نجم حقيقة يجهلها الآخرون، إلى أن يبوح بها فيضيء في قلوبهم، أو يتلاشى في سرداب النسيان المظلم.

* * *

جذر ومد تحت الظلال الوارفة، على رمال شاطئ البحر، العملاق أمسك بالأسماك من القاع ورفعها، شواها في عين الشمس، أعد مائدة عامرة، انطلقت رائحتها مع الرياح، دخلت إليَّ من النافذة، كنت في ذلك الوقت أنتظرك، شربت شاياً، تباطأت في الخروج حتى يحين موعدنا، في المطعم العائم على الموج.

مَسّت أنفي تلك الرائحة، المشوية على نار هادئة، تسربت إلى مخي، أحدثت في خيالي ما جعلني غير قادر على البقاء ساكناً.

نظرت في المرآة، رأيت جذور شعر ذقني وشاربي تطول بسرعة، وجهي وجسمي يتبدلان إلى قطٍّ كبير نظر في عينيَّ، عدت إلى الوراء متراجعاً ومنـزعجاً، اصطدمت بالنافذة، تلقائيًّا قفزت قفزة هائلة في الجو، لم أدر بنفسي إلا وأنا أهبط على تلك المائدة، وجدتك جالسة في انتظاري..

أكلنا بنهم، اتكأنا حتى امتلأت رئاتنا باليود المتبخر، عدونا خلف بعضنا البعض على رمال الشاطئ، والشمس تلون بشرتينا بضحكها، تمدّدنا على ظهرينا، بدت قبة السماء قريبة، ملونة بفرح سماوي لا حدود له.

* * *

امتدت أصابعي، ضغطت أصابعك، رعشة خفيفة هربت منك إليَّ، فضحكنا، ارتمى كل منا بين ذراعي الآخر.

* * *

والموج يأتي خفيفاً رحنا نستكشف قاع البحر، سرت الرجفة في أوصالنا ونحن نقترب أكثر، والدهشة تشكلت في وجهينا..

في القاع كانت الجواهر مغلفة بغشاء شفاف، اكتشفنا أن عمق القلب لا قرار له، لمستك فأجفلت مني وغبت عن الوعي، حملتك بين ذراعي وسبحت، خرجت من الماء إلى الظلال المفرودة، كقطيفة مبللة على امتداد الشاطئ.

الشمس غابت بعد فترة من ارتمائنا تحت الأشجار. ما زلنا مبللين، والبحر في نشوته يمد أمواجه إلينا كي يلمسنا، لكن قوة الجذر المتوترة تغلبه، ترد إليه أذرعه لتذوب في أغواره العميقة.

* * *

فتحتِ عينيك باسمة. نظرتُ في وجهك متأملاً، رأيت الظمأ قد جفف حلقك، بدت ملامحك شاحبة، انزعجت على وهنك، رحت أدلك أصابعك..

هناك في الشفق الأرجواني، ثمة طيور مرهقة تلقي نفسها في الماء ثم تخرج بعد فترة، تنفض الملح عنها، وتحلق عفية من جديد..

إنه البحر حين يغسل التعب، يريح النفس من عناء الجفاف والتصحر، وما تلاقيه في الحياة، عندما تبتعد بمشاغلها اليومية عن القلب بمقدار غفلة عين، تجد المشاعر حادة ومدببة تخدش كل شيء بعنف.

* * *

توحدنا بما أحدثه البحر في نفوسنا من تغيير، راح كل منا يكشف أعماق الآخر إلى الحد الذي وَرَّدَ وجناتنا، ونشر الدفء والنعومة في روح كل ما يحيط بنا.

* * *

لأن البحر هاج واضطرب، ركبت موجة عالية، تركتها تدفعني إلى الداخل بتجذرها، هناك رأيت العملاق وهو يغطس في البحر المزمجر، يضخ الحياة في شرايين الماء، قبل أن يهدأ الفوران بلحظات انكمشت الموجة، وجدتني هنا.. واقفاً في نافذتي.. وحيداً أمور من الغيظ والتوتر لأنك لم تأتِ.. رحت أردد قول سقراط:

"إنني أعرف أنني أكاد لا أعرف شيئاً، وحتى هذا أكاد لا

أعرفه"

فإلى متى تظل الحقيقة مجرد تخمين؟!

فكلما اقتربنا خطوة من بعضنا، أجد الكثير من الأمور المهمة التي تحتاج إلى تفسير، حين أسألك تهربين وتغيبين.

بعد أيام تأتينني بلهفة، أجدك تختلقين عذراً جديداً، أصدقك - كما في كل مرة - أسابق نفسي، أخرج لألقاك.

بدلال تمتصين غضبي، تداعبين ذقني النابتة، تسأليني في براءة:

- لِـمَ لم تحلق ذقنك اليوم؟

في لحظات أستعيد ابتسامتي، نذهب سويًّا إلى شاطئ النهر، نمشي تحت الأشجار، أقدامنا ترفعنا بمقدار ألف ميل عن أرض الواقع، نعيش في السحاب، معزولين عن الناس، هائمين في انسجام، نرسم بيوتاً، نزرع حدائق، نملك جاهاً، وسلطاناً، وملكاً لا يزول..

أراك ملكة تزينكِ النجوم بنورها..

ترينني فارساً ملكتِ الدنيا بحبه.

* * *

دائماً ما تحملنا أجنحة الملائكة، تمسّنا بهوائها وعطرها الأخاذ، ننساق وراءها مسرعين، نتسلق سُلم السماء الأخضر، نرتقي أعلى درجات الروح، نعثر على ذهبها المخبأ في داخلها، ننثره على الأهل، الأقارب الأصدقاء، السائرين على درب الهوى، العاشقين الباحثين عن وهج القلوب، والجامدين الميتين في مشاغلهم الصغيرة، الفاقدين نعمة الحياة.

* * *

في آخر الليل تعودين إلى بيتك، تتركيني وحيداً، أهوى وأرتطم بعنف في حدود الواقع، أجلس متكوماً في ركن الغرفة، أرقب ضوء النهار من زجاج النافذة، أنتظره أن يزول.

هناك في أول الليل أرتب أحلامي، أستعيد ابتسامتي، أعيش في حلم وردي، لا حدود لمنتهاه.

* * *

نور القلب انتشر حين تكررت الرؤية الليلية، على الراعي الشاب في رواية "السيميائي" لـ"باولو كويلّو" قرر أن يتبع العلامات التي يراها، حتى يصل إلى الكنز المخبوء.. قرر أن يتبع ذاته إلى حيث تريد أن تصل، في النهاية حقق أسطورته الذاتية.

كذلك فتحت نافذة على نفسي، وقفت أطلّ عليَّ، رأيت خلاياي مشبعة بك، تلك العلامات وقفت كالشواهد على دربنا الطويل، الذي قطعناه معاً في فترة وجيزة، أشياؤنا المختلطة، خطواتنا المتطابقة، مثلت أمامك وقد أنقذتِني من غربة روحي، وجدتني صاحب هدف، أدافع عنه حتى الموت، صهرني الحب في أتونه، أعاد تشكيلي من جديد، وجدت أسطورتي الذاتية معك، أصبح لا شيء يعنيني في الحياة إلا أنت فقط، لا شيء إلا الإنسان، لا شيء إلا الحب.

* * *

رحت أنفض الغبار عن نفسي، عن كنزي المخبوء، أشرق وجهي، التمعت عيناي ببريق الحب، ها هو الفتى الذي قالت له أمه يوماً في صغره:

"تستطيع أن تصلي دون وضوء!"

لم أفهم، ظللت من حين لآخر أسمع منها ذلك. الآن أدركت أن الوضوء نوع من الاستعداد للإيمان، نوع من نفض الغبار عن الذات، عرفت أن الصلاة تأتي بعد ذلك، حين يصبح الإنسان مؤمناً، قادراً على الخلاص بنفسه مما حولها، عند ذلك يصبح الله في داخله أينما توجه، ذلك هو النقاء الذي يولده الحب، هو غاية البشر، سواء وجدوه أم لم يجدوه.

* * *

بينما أنا غارق تماماً في قراءة "حافة الفرودس" أتطلع إلى طوق النجاة في يد نبيل عبد الحميد، رأيتك في الضوء الذي غمرني، نفذت إليَّ، ذهبنا معاً، نلبي دعوة صديق نوبي، يحتفل بعرسه، دخلنا في تلك البيوت البيضاء، المبنية على هيئة أكواخ متناثرة على امتداد النهر، سمعنا أصواتاً تخرج من النوافذ في إيقاع منتظم، تردد أغنيات راقصة تحرك الجسم، تدعوه إلى الفرح.

حين وصلنا رأينا الأشياء جلية.. وقعت أبصارنا على عروس تُجهز في ليلة عرسها، جالسة في زيها الملون بالبهجة، تقطر خجلاً، الحناء مرسومة بنعومة في يديها، لون قدميها مثل ذهبية شمس الصباح. أمامها فتاة بيضاء رقيقة الملامح تُجمّل وجهها وتزينها، على الأرض تقعد فتاة سمراء اللون تنظم الورود في عقود طويلة، النساء حولهن، في ساحة البيت يندمجن في غناء جماعي، أعينهن على العروس، التي أوشكت أن تنهي زينتها.

وقت حافل بالمتعة والذكريات الجميلة، يعيش في ذاكرة البنات

والنساء ويتحدثن عنه من آن لآخر، يصبح معيناً على الحياة حين تشتد، باعثاً إلى مزيد من الفرح في أوقات الرضا.

* * *

كانت الأغنيات تختلط بالزخارف المنتشرة على الحوائط البيضاء، تخرج إلى الخلاء، يتردد صداها في الأفق، تذوب في ماء النهر، تسافر مع جريانه لتصب في عروق الناس، حتى إننا مررنا بكل البيوت فوجدنا في كل بيت ليلة عرس مقامة.

يبدو أن الفرح ينتقل إلى الآخرين بمجرد النظر في ملامح فرحة، فحين رأينا الوجوه مبتسمة ابتسمنا بفرحة، تأرجحنا في الهواء، بحثنا عن القناديل المطفئة لنشعلها، نوقظ أهل القرى والنائمين.

حولنا الليل إلى نهار، اختلطت الساعات في الأدمغة، كفَّ الكون عن الدوران أمام تلك اللحظات.

رأيتِ في عينيَّ كما رأيتُ في عينيك، زينة اللحظة التي ستدخل فيها ليلة العرس إلى بيتنا.

وقفنا تحت قنديل مضاء، فاندفعت الفراشات في وهج الضوء، غير مبالية بالحرارة الشديدة، ثم سقطت متخمة بالحب، نامت في هدوء، وكلما خلت قلوبها من شحنة الدفء تعود من جديد، تندفع في نار العناق لتنهل منه ربيعاً، وألف حياة جديدة.

* * *

العناق

صيد البر يجلب متعة كبيرة، إذا ما صاحبه الكثير من المغامرة غير المحسوبة، اتفق مع أهل شاطئ بحيرة وادي الريان وصياديه، على الخروج معهم في نزهة صيد، هو وبعض رفاقه في الرحلة، بعد أن يطمئن على وجود الطلاب في مأمن فترة غيابه، عبر الحشائش الكثيفة والأحراش الكائنة على مرمى أبصارهم.

في الصباح الباكر خرجوا مجهزين بملابس فضفاضة، يحملون عِصيا خفيفة في أيديهم، فبدوا كأنهم مسلحين بالرماح، يشدون الأحزمة على بطونهم، زاد اندهاشهم عندما وجدوا الحمير في استقبالهم، متأهبة للانتقال بهم، بدت بآذانها الطويلة، وعظامهما البارزة غير قادرة على فهم ما يحدث.

أعلن كبير أهل الشاطئ أن المنطقة آهلة بالحيوانات النادرة، من كل نوع، فيها من الثعالب والوحوش الضارية ما لا يحصى، وعليهم اتباع أوامره حتى لا يتعرضوا للهلاك.

سرت رعشة خفيفة في قلوبهم عند سماعهم ذلك، لكنه طمأنهم، أخبرهم أنهم في مأمن طالما اتبعوه ونفذوا أوامره. فهو بحنكته وأعوامه الكثيرة لاقى من الأهوال مالا يخطر على بال أحد.. كل ذلك أكسبه خبرة ودراية في معاملة تلك الكائنات الصحراوية، أضاف أن الأمر مليء بالدهشة والإثارة والمتعة، وما يستحق أن يضحوا من أجله حتى لو كان الثمن حياتهم.. فحياة مثيرة وشيقة وممتعة، كبحر هادئ ومضطرب وثائر ونافر، خير من حياة رتيبة ومملة وسقيمة، لا تستحق أن تعاش، المحصلة في النهاية تتوقف على اختيارهم.

سيطر عليهم الضحك، على ما يسمعونه، فالأمر لا يتعدى أكثر من رحلة على حمار بطيء، لا أكثر، لكن طريقة تصويره لما هم مقدمون عليه، جعلهم يشعرون أنهم صائدوا أسود في مجاهل أفريقيا.

* * *

نقلتهم الحمير باندفاعها إلى مجهول لا يخلو من مغامرة، وهم ينادون على بعضهم البعض استشعروا القوة في أصواتهم العالية، ضحكوا وتهامسوا ورؤوسهم تدور كالرحى، وأصوات الطيور تظلّلهم بفرارها أمام ذلك الجيش، الذي اقتحم عليها سكونها، بوقع أقدام تدك الأرض. شاهدوا ألواناً من الطيور والحيوانات للمرة الأولى في حياتهم، أسراب من جيوش الدهشة عبرت وجوههم، وهم يمرون بهدوء بين أعمدة من الأشجار الملساء، تفرش سحابات الظل على حدائق الزهور، التي لم تمسها يد من قبل، في محمية وادي الريان.

كان المكان قطعة متجانسة من عالم بدائي كما خُلق.. بديع إلى درجة لا تصدق، بدت أعينهم مذهولة ومأخوذة، سارحة ويقظة في آن واحد، رغم التناقض بين حياة البحيرة وحياة البر.

رفع الكبير يده لأعلى، فعلموا أن في الأمر شيئاً مهما، أسكنوا أقدامهم خلف آذان الحمير فتوقفت القافلة، أشار بيده إلى ربوة عن يمينهم، أخبرهم أنها مكمن الأسود والسباع، وعليم أن يأخذوا حذرهم، يشحذوا رماحهم وأسلحتهم، تبعوه وهو يتقدمهم ببطء شديد، مشدود العود كرمح، قوي العضلات كشاب في العشرين.

* * *

خمن الرجال ونقبوا وراءه عن سر صلابته وحيويته، علموا أنه يقتات أقل القليل من الطعام، يكاد ينحصر غذاؤه في شيئين رئيسين، هما اللبن وكبد الحيوانات والطيور الطازج، حتى إنه في بعض الأحيان كانت تضطره الظروف أن يأكل الكبد نيئاً، ولذته في ذلك كبيرة لا تضاهى، حتى صار كل من يعرفه يحاول أن ينهج نهجه في المأكل، قليلون من استطاعوا أن يستمروا في تقليده، فطبيعة شهوة الأكل تجعل الإنسان يشتهي كل شيء، ويخيل له عند ذلك أنه لا يقنع بنوع أو نوعين، يبتكر ويتفنن في إعمار مائدته بكل صنف على قدر ما يستطيع.

* * *

التقط الرجال المدربون، المصاحبون للرجل الكبير، بعضاً من الأرانب البرية بالحيلة والمكر، دون استعمال عصاهم، وذلك لكثافة الأحراش وارتفاعها، فلم تستطع الأرانب الإفلات من أيدي صياديها.

أوغلوا في الممرات الطبيعية بين الأشجار العملاقة، هناك عند نقطة كان قد حذرهم منها الكبير، تناهى إلى آذانهم زئير متقطع، أصاخوا السمع، لم يكن غير حفيف أشجار، فئران تفر، ترقبوا في حذر وقلق بالغين، سكنت خلجاتهم، وجدوا الحفيف يقترب، نظروا حولهم..

خلف جذع ضخم شاهدوا غزالتين نائمتين في استرخاء تام، أعينهما تتجه إلى القطيع مباشرة، وحين رفعت الحمير أصواتها وقفت الغزالتان متأهبتين للفرار، كأنهما عداءان واقفان على خط

البداية في سباق المئة متر.

أشار الكبير إلى الرجال أن يواصلوا سيرهم بهدوء، تحركت الحمير بتخاذل ووهن، فقد أحست بالخزي.. فها هي رغم تعبها تسير على هوى راكبها، وتلك الغزالتان الصغيرتان لم يجرؤ على الاقتراب منهما أحد، لكونهما نادرتين، تضع الحكومة ضوابط صارمة ومشددة لمنع صيدها، أو معاكستها، بل هيأت لها مكان عيشها، جعلته محمية لا صيد فيها، كأنها دولة مستقلة، اكتفوا بالمرور جانبهما في سلام، أي استسلام وأي هزيمة قد لحقت بجنس الحمير، حين روضها ذلك المخلوق الصغير الذي يمشي على قدمين، أي تكاثر تفعله الحمير بغباء، أخرجها من جنس الحيوانات النادرة.

تساؤل برز على آذانها المفلطحة، دفعها إلى النظر إلى بعضها، تحريك أذيالها في دائرة كاملة، بدأت من أسفل إلى أعلى، دافعة روائح كريهة من الخلف، أطلقت نهيقها المزعج، لتخبرهم أنها كائن بري، يعيش في سكون وطاعة، يمتد تاريخها إلى مئات الآلاف من السنين.

* * *

من بعيد ظهرت الشمس، وهي تميل في الأفق، تلبس رداءها الأرجواني، تنزل سلم السماء ببطء ودلال.

* * *

أخبرهم أنه سوف يعود بهم من ممر مختصر، وهم على وشك الاقتراب منه، تنفسوا بطمأنينة، علت وجوههم ابتسامة خفيفة، أخفوها عن بعضهم درءاً لصفة الخوف التي قد يلصقها البعض

بأحدهم.

تحدثوا عما واجهوه عبر الأحراش، عما كان بداخلهم من أحاسيس مختلفة، وحكايات ابتكروها في رؤوسهم، وقفزت إلى ممر العودة، هللوا وهم يخمنون في ما آل إليه حال البنات المنتظرات في الخيام، ورائحة نفاذة هبت فجأة، أنعشت صدورهم، جذبتهم إلى فضة ماء البحيرة المتساقطة من نجوم السماء.

* * *

مطر دافيء سقط على رؤوس البنات، جلسن في الرمل أمام الخيام، جنّ الليل عليهن فأوقدن ناراً، تسامرن حولها، وهن ناعسات عن الدفء، الذي بدأ يسري في أبدانهن، حملهن بعيداً، حطهن على نغمات غير مألوفة تنبعث من صدورهن، بُحن بأسرارهن لبعضهن، وللنجوم الساهرة التي تحرسهن.

أخبرت كل واحدة الأخريات بما يجيش بصدرها، بما تتمنى أن تحققه، بما لا تستطيع أن تخبر به أحداً، إلا إذا كان قريباً منها بدرجة كافية جداً لرؤية ما بداخلها.

انتبهن للنار وهي تخفت وتتلاشى، وضوء الفجر يوشك على الإشراق، ومشرف رحلتهم مع الأولاد والرجال لم يرجعوا من صيدهم، انتابهن القلق والاضطراب، لم يستطعن أن يسيطرن على أنفسهن، زرعن الرمل خوفاً، فكرن في مصيرهن، وهن وحدهن في مكان غريب عليهن، بلا حماية، رغم الدفء الذي شعرن به من معاملة الفلاحات لهن.

قطعن الشاطئ بأرجلهن آلاف المرات، أعينهن على المدى

البعيد ترصد أي تغير، تترقب ظهور قطيع الحمير من بين الأشجار.

مع انتشار لون الصباح حولهن شعرن بحركة تتقدم نحوهن، غسلن خوفهن بالطمأنينة، جرين إلى القطيع القادم من بعيد، رأين سقف السماء محملاً بكتل السحاب، رغم أن الوقت صيف، والهواء منعش. المطر أراد أن يكون حاضراً ففتح الأبواب التي أمامه، هطل بغزارة، أوصل الأرض بالسماء، بحبال الماء الدافئة، التي أجلت القلوب، وخزت الأبدان بنشوتها العارمة.

* * *

لم تشعر البنات بالبلل، وملابسهن ملتصقة بهن، وجدائل شعورهن تتخبط بهن، وصلن إلى الرجال، دفَّأن شغفهن برؤيتهم عن قرب، عادوا جميعاً يصحبهم الهدوء إلى الخيام، جهزوا بعضاً مما صادوه، طهوه وهم يحكون عما قابلوه وصادفوه، أكلوا، ولم يتوقفوا عن سرد تفاصيل كل ما مروا به، فقد كانت الرحلة مغامرة لا تنسى، وشجاعة وجدوها في أنفسهم فجأة، والبنات يستمعن لهم بشغف وانبهار ودهشة، غير مصدقات.

في سرائرهن وددن لو ذهبن معهم، وشاهدن بعضاً مما يروي لهن.

* * *

سيطرت روح المرح والانطلاق على الرجال، وهم يحكون عن مغامراتهم. حين رأى المشرف أن البنات شغوفات بما يرويه لهن، أطلق لرأسه العنان، صانعاً إطاراً ضخماً، أخبرهن أنه بينما كان في ذيل القطيع، سمع صوتاً رقيقاً يناديه، فالتفت إليه، شرد عن مساره، ذهب يتبع أذنيه، لمح بنتاً مقيدة بالحبال في جذع شجرة، نظر حوله

متوجساً، سارع إليها، وقف أمامها متأملاً، غلبه حسنها، مد يديه، حل وثاقها، أوقفها أمامه، قبّل جبهتها، ضغطها بين ذراعيه، في لحظات وقبل أن يتبادل معها كلمة واحدة ظهرت دقات الطبول من مخابئها، جذبها من كفها، انطلق والأصوات تتزايد وتتجسد أمامه، وجد نفسه محاصراً أمام كائنات غريبة، أجسام آدمية، بلا ساتر، رؤوسها ضخمة، أعينها طولية الشكل، والأنف والفم مركبان على امتداد يبعد عن الرأس بطول ذراع، أصواتها همهمات، قيدوهما بعد أن جردوه من ملابسه، حملوهما باتجاه إناء يتصاعد منه دخان كثيف، ألقوهما في ماء يغلي، قلبوهما ووضعوا عليهما غطاءً محكماً.

وهما في الإناء وجد يده قابضة على قطعة حديد مدببة، فغطس إلى القاع والنيران تلهبه، ثقب قاع الإناء، أسال الماء المغلي، أطفأ الطهي، راحت تساعده في ثني القاع، ثم حفرا حفرة في الرماد، قفزا فيها، انهالت الأرض تحتهما وظلا يتدحرجان إلى الداخل، وجدا باباً فطرقاه، فتح لهما صبي، انحنى أمامها، كان الممر يؤدي إلى قصر، عرفته البنت أول ما أبصرته، انطلقت تعدو صائحة، ارتمت بين أذرع رجل وامرأة في نهاية البهو، أخبره الصبي أنها ابنتهما، وأنها خرجت يوماً من ذلك السرداب المؤدي إلى البحيرة، وضلت طريقها.

* * *

كانت العيون تلتهمه بترقب وهي مصغية، قالت إحدى البنات، بدلال: تسطيع أن تؤلف "فيدو كليب" باهر، فخيالك ساحر لا نهاية له.

الرجال يتهامسون ويضحكون، يتبادلون الأدوار فاردين آذانهم لما يسمعونه، مكثوا فترة على الشاطئ، بعد ذلك عادوا إلى المركب، استكملوا رحلتهم التي بدأت في النهر، ووصلت إلى البحيرة، ، نظروا إليه، كان يجلس في دائرة من البنات يقص عليهن تفاصيل رحلته في القصر، الذي وصل إليه عبر السرداب مع البنت، التي أنقذها من تلك الكائنات المرعبة، وفي ذهنه أطلّت بحضور طاغ "جمانة"، البنت التي قابلها أول مرة، أمام الشلال، وغمرته باهتمامها، فأعطاها عنوان بيته، تساءل:

ترى! ما الذي يحدث في القلب؟!

كيف يهبط الحب هكذا؟! فجأة دون مقدمات.

أي كيمياء تتفاعل في الجسم؟! تدفعه فجأة في اتجاه لا يعرفه، لمجرد حدس داخلي.

* * *

ابتسم متذكراً ما سمعه في المركب، من أحد الأولاد، الذي يحكي عما سمعه من أمه عن السلعوة التي ظهرت في منطقتها، وأرعبت السكان، وعن سبب خروج تلك السلعوة إلى الناس، بعد أن ماتت ابنتها تحت عجلات سيارة مسرعة، كانت تضل طريقها في الصحراء، تركتها وحيدة، أصبحت عزوفة عما يحدث حولها، حتى إنها مَلّت الحياة في صحراء المقطم، هجرتها ونزلت إلى قرى حلوان، استقرت بعد ذلك في حديقة أحد البيوت، أهملت حياتها، نسيت قوتها، اكتفت بشرب الماء من نافورة حديقة البيت، ذلك ما دفعها إلى أن تنام جانبها، تأكل أشياء لا تُذكر، كانت ترى نفسها

وهي وحيدة أقل من فأر، تنشد الهدوء والراحة في مكان لا صراع فيه، لكنها ظلت في أعين الناس ذلك الحيوان المفترس، الذي يرعبهم، فخططوا كثيراً للتخلص منها، حتى كانت نهايتها على يد أبيه.

* * *

ألم الذكرى الذي حاول أن يؤجله كثيراً، طَلَّ من جديد، فما لم تعرفه البنت حين قابلته للمرة الأولى أنه ابن ذلك الشاب الذي تبحث عنه، وما لم يخبرها به أنه شم رائحة أبيه حين دخل إلى بيتها، تذكر الحكايات الكثيرة التي روتها له أمه، شاهدها وهي تصحو من نومها مجسدة، تتحرك حوله.

وجد نفسه داخلها دون مسافة فاصلة، أو إطار يمنعه، فما آمن به وانطبع في ذهنه، فرض حضوره في لحظة واحدة، الذي جعله يبدو كلوح من الخشب، يقف موقف اللامبالي أمامها، هو دهشته من سلوكها تجاهه باعتباره المنقذ..

فكيف لم تر نفسها وهي تكبر وتنمو؟!

فما عرفه أن تلك الحكاية قد مرّ عليها أكثر من خمس عشرة سنة، كان وقتها في العاشرة من عمره، يجلس جوار أمه أمام بيته الملاصق للنهر، في انتظار عودة الأب، عيناه على شغفها وحيرتها، وهي فريسة للقلق، الذي وَلَّده غياب أبيه، رأى أمه وهي تتحدث مراراً إلى النهر، تلقي بالدعوات والأمنيات، بعينيها الدامعتين تجذبه نحوها، تحنو عليه، تضمه إلى صدرها، تعده بمكافأة كبيرة، إذا استطاع أن يستمر معها في عد الأرقام إلى مالا نهاية. وهو يجتهد

في العدّ حتى يغلبه النوم.. والأب ساهر لا يعود.

كررا معاً نفس اللعبة ولم يصلا إلى نهاية أبداً.

عاد أبوه بعد عدة أيام، روى لأمه ما حدث، في نهاية حديثه تحولت لهفتها ودهشتها وإصغائها إلى سخط وتبرم وصوت متألم، طغى فوق نار العشاء فأطفأها.

* * *

كان أبوه يذهب إلى عمله بالمدينة على الضفة الأخرى للنهر، وفي أيام كثيرة كانت تستوقفه أشياء فيترك نفسه لها، كان يبحث عن الإثارة والانطلاق، يغامر دون حساب، وكثيراً ما أخبرها أنه يود أن يملأ صدره بالهواء ويطير.

مرة بعد أن هدهدته وأنامته سمعه يتحدث إليها:

- أخيراً وجدت عملاً يناسبني.
- أي عمل؟!
- سوف أفتح بازاراً في المدينة.
- وعملك الحالي؟!
- لا يهم، سوف أتركه.
- ومنصب العمدة الذي تسعى إليه، والذي وعدك به المأمور؟
- لم أعد أريده، كنت أتسلى وأحقق للناس بعضاً من العدل.
- ونحن؟!
- نحن معاً دائماً.
- ما الذي يدفعك إلى ذلك؟
- مللت.. فلا فائدة من الدوران، والتقيد في عمل لا يشبع.
- فكر جيداً.. لا تبدد أموالك وتضيعنا معك.

- اطمئني.. سوف أشارك أصدقاء مضمونين.
- من هم؟
- أناس عرفتهم بالأمس.
- بهذه السرعة؟
- أعجبتني الفكرة.. نامي ولا تخافي.

* * *

بالفكرة التي سيطرت على الأب، انفتح جرح جَرَفَ أمة في عمقه، طبع علامات المرارة على وجهها، وهي تستجدي أخواتها من أجل إطعام جوع صغيرها، لم تحتمل الألم، وهي تداوي أحزانها بالملح والصبر، محاولة الخروج من نفق مظلم ألقاها فيه.

هؤلاء الأصدقاء الملعونون، أطلقوا رأس أبيه في السماء بما فعلوه معه، حين استولوا على ما اشتروه في المحل، وضعوا عنده قطعة آثار مُهرّبة، وأرشدوا عنه.

* * *

حين رجع الأب من سجن استمر لعام، بحث عن مال لدى أمه، وكانت مريضة لا تقوى على حمل نفسها، بعدما أصابها توقف مفاجئ في حيويتها، وضمور بدد جسدها وأحزنها.

* * *

مرت عليه الأحزان، وحيداً ينثر الزهور على ذكراها، وينتحب في الخلاء.

* * *

وجده أبوه يوماً على تلك الحال بعد مرور ثلاثين يوماً على وفاتها، تركه ومضى.. في البيت قال له إن ذلك لا يليق به، وأنه

أصبح رجلاً، يتحمل المسئولية، فلا داعي لذلك.

وقال إنه شاخ واتسخ في وحدته، وإنه في طريقه إلى إعمار البيت وإخراج الرطوبة منه، أخبره أنه سيتزوج ببنت صغيرة تجلس إلى جواره، تشاركه ليله الطويل.

* * *

قبل أن يسحب الليل موجه الأسود من فوقه، رتب الأب الأركان، بما لا يسمح بوجود أحد غيره وغيرها.

* * *

استمر في نقش الجدران، تغييرها بالطلاء في قريته، استدعاه أحد الرجال من مدينة مجاورة، للقيام بالدهانات اللازمة في بيته الجديد، آثر أن يبقى عنده حتى ينهي العمل الذي يحتاج إلى أكثر من شهر، يبدأ يومه من الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساءً، في الليل يخرج مع ابن الرجل، الذي يقربه في السن، يجلسان على المقهى، يتنزهان في شوارع وطرقات المدينة الصغيرة، يقفان ويجلسان قليلاً على آخر مقهى، يعودان متعبين، يمدد جسده على سرير متواضع، وضعه له الرجل في حجرة صغيرة، تقع في ركن من حديقة البيت، يتسرب إليه الضوء من النافذة المغلقة، يتحرك إليها، يفتح ضلفتيها ويتكأ بكوعيه على حافتها، يدقق في تضاريس القمر السوداء، التي ترسم أرنباً كبيراً، لونه أبيض، مرقط ببقع رمادية، يجلس على رجليه الخلفيتين، يدق الماس في الهون النحاسي، يحوله إلى قطع صغيرة متشظية، ينثرها في السماء، فتمتص ضوء النجوم وتعكسه في ألوان متداخلة تبرق على الوجوه التي تنظر إليه.

* * *

كان العمل يتطلب منه جهداً جسمانيًا مضاعفاً في بعض مراحله الأولى، خاصة حينما يبدأ في طلاء أسقف الغرف، تتصلب اليد من كثرة رفعها لأعلى، ويبدأ جيش النمل في مهاجمة ساعده، فتنمّل يده، فيضطر إلى إنزالها قليلاً.

دخل عليه الرجل، وهو يدندن بكلمات أغنية يحبها، بادله التحية، سأله:

- متى ستنتهي من المرحلة الأخيرة؟.

- خلال أسبوع واحد، تستطيع أن تبدأ في فرش البيت.

بينما هما يتحدثان دخل ابن الرجل، طلب من أبيه مبلغاً كبيراً. مدهوشاً نظر للرجل وابنه، نظرة طويلة، توقع أن يرفض الأب، أو يسأله عن سبب احتياجه للمال، لكنه فوجئ بالرجل يلبي طلب الابن، أخبره أن يذهب إلى غرفة نومه، يضع يده في جيب سترته، يأخذ ما يريد.

سأل الرجل:

- ألن تسأل ابنك في أي شيء يحتاج إلى المال؟!

- لا، لو أراد أن يخبرني لفعل، لذا تركته على حريته.

- ألا تخاف أن ينفقه في شيء يضره؟

- لا أظن، لأنني غرست فيه قيماً معينة، حتى لو فعل ما تتخوف منه، فهي تجربة ولابد أن يتعلم منها شيئاً.

- بهذه البساطة.

- ولِمَ لا؟!.. فالعناية بالأبناء لا تقف عند حد.. وكل ما يملكه المرء يجب أن يسخره لخدمتهم.

* * *

أنهى عمله وعاد، ذهب لرؤية أبيه، فقد انزلق في الطريق، منذ يومين، واضطر إلى نقله إلى المستشفى، وتجبيسه، وجده راقداً في فراشه، قدمه اليسرى في الجبس، وقف في مكانه، أشار له الأب، قال:

- ألن تُسلم على أبيك؟!

فاجأه السؤال، أدرك الحرج الذي سببه لأبيه في وجود زوجه، اقترب من سريره، لم تكن به رغبة إلى عناقه، أو مصافحته، شعر أن عامل بناء دخل إلى نفسه، وبدأ في بناء جدار عالٍ، ترك نفسه لأبيه يقلب وجهه بين يديه ويقبله، جلس إلى جواره، شارد الذهن، لا يكاد يقف على كلمة مما يقال عن أسباب الكسر، انتبه إلى سؤاله:

- كم كسبت من عملك الأخير؟

حين وجده الأب صامتاً، لا يرد، قال:

- لن تخبرني، كعادتك، تريد ألا أعرف عنك شيئاً.

ما دفعه إلى الصمت، أنه لم يكن يريد أن يبدأ معه تلك الحلقة التي لا تنتهي، من النقاش حول زعم الأب أن ما يكسبه يجب أن يعطيه له كاملاً، أدخل يده في جيبه، أخرج مالاً كان قد جهزه قبل أن يدخل عليه، ناوله إياه، تركه ومضى وهو يحصيه، من بعيد أتاه صوت الأب، وهو يقول:

"هذا لا يكفي..

لا تجعلني أغضب عليك..

أتسمع..

الأبناء في خدمة الأباء.."

انشغل ذهنه بترتيب أموره بما يكسبه من عمله في النقاشة، يدخر

بعضه لأيام الدراسة، حتى لا يحتاج إلى أحد، لأنه يعلم في قرارة نفسه أن أباه لن يعطيه جنيهاً واحداً، إذا طلب منه.

جَرَّه الابتسام إلى الضحك بصوت مسموع، وصورة ابن الرجل، وهو يضع يده في جيب أبيه، يأخذ ما يريد تتحرك أمام عينيه.

* * *

مراعي الزهور المبهجة شدته إلى سهولها، دفعه الحزن والتعب إلى الابتسام، ألقى إبر الذكريات وراء ظهره، واجه الواقع بصدر موارب ضيق، بمرور الوقت تعالى عليه. أشياء كثيرة تسربت في مخه، امتدت إلى قلبه، أكسبته صلابة في مواجهة الألم، جعلته أكثر قرباً من الناس.

بنى بيتاً صغيراً على قمة الجبل، المطل على النهر في أطراف القرية، من خلال شباكه المواجه للماء شربت عيناه أملاح المدينة، المفصولة عنه بشريان النهر، يراها في الليل بأضوائها المتناثرة، الخافتة، المتوهجة، والمتذبذبة دائماً، ترقص في عينيه، يتطلع إلى سمائها وكائناتها التي لا تهدأ، أو تنظر خلفها، وهي تستحم في ماء النهر الدافيء، وتخرج محلولة الشعر، خالية من الغبار والوجوه الجهمة.

* * *

يجلس بين تلاميذه وطلابه، يعلمهم كيف يفتحون أبواب تاريخهم، يدخلونها بفهم لأحداثها وأشخاصها، في الليل يلتفون حوله ليحكي لهم فصولاً من الماضي، من آن لآخر يأخذهم في رحلة إلى تلك الأماكن، آخرها رحلتهم إلى الفيوم، وزيارة محمية

وادي الريان.

كانت حياته تمر هادئة، وهم يكبرون حوله، يصادقونه، يأتي غيرهم ليبدأ من جديد، في تربية وتعليم الصغار، يغرس فيهم البذرة السليمة لتكوين أجيال جديدة، تُخرجها مدرسة القرية.

* * *

أعوام مرت ورحل أبوه، تاركاً له إرثاً ثقيلاً في حاجة إلى رعاية كبيرة، زوجة شابة، وأخاً لم يكمل العامين، سيضطر هو الآخر أن ينحت في الصخر كي يعيش.

كبرت فجأة عباءة الراعي، فيما لا يستطيع أن يسيطر عليه.

فكلما ذهب لرؤيتهما يقف طويلاً، أمام لوحة اشتراها الأب، وعلقها على الحائط،كأنه يراها للمرة الأولى، رغم وقوفه أمامها كثيراً وهو صغير.. قطيع من الأغنام يرعى في أرض جافة، تتناثر فيها من بعيد جذور متهالكة، والراعي يتوسط القطيع ويغني، فارداً عصاه على كتفيه، قابضاً عليها بكفيه من طرفيها، وفي الخلف يقف الذئب، شارعاً رقبته لأعلى، متحفزاً في انتظار تسرب الغفلة بين الحيوانات، وانطفاء الغناء من حارسها.

* * *

أوقات كثيرة مضت، في تعليمه الصغار، مستهلكة منه الكثير من الأعصاب في فناجيل القهوة، إلى أن التقى بها، وقفت أمام شلال وادي الريان، تحدق به.

شابة رقيقة الملامح، متوردة البشرة، برونزية اللون، ينسدل الشعر الحر على كتفيها، ينساب كماء نهر هادئ يمر في أرض لينة،

اخترقت بحضورها شغاف قلبه المغلق، طرقته بعنف فأدمته، وهو المتيبس منذ خُلق، أسير ظروفه الصعبة، وطبيعته الخجلة، يحلق في عالم الخيال، يقيم حوارات لا تنتهي مع فتاة أحلامه، كما يرسمها ذهنه، لم يكن لها شكل محدد، أو ملامح واضحة، فقط رائحة أنثوية تخترق رئتيه، تدفعه إلى البحث عنها، في الوجوه التي يقابلها، والأماكن التي يرتادها، كثيراً ما ركن إلى أنه لا أمل نهائيًا في الوصول إليها، وأنه سيظل كهذا وحيداً إلى الأبد، بلا روح يسكن إليها، يبثها شوقه وغرامه، يشعر معها بطعم الحب، وحلاوة القرب، إلى أن وقعت عيناه عليها، وهي تبدد انتظاره الموحش، منذ أن رآها لأول مرة في الفيوم، تصعد الجبل وتدخل بيته، أحس أن كل ما ينتظره هبط عليه فجأة، لم يحتمل وقع المفاجأة، ارتبكت أطرافه، دار الجبل به وانقلب إلى بئر عميق، هوى إلى قاعه ملامساً جدرانه في حركة دائرية، انتبه لسقطته المروعة، فرد ذراعيه ماسحاً الحوائط بكفيه، متشبثاً بالهواء للإمساك بشيء، شعر أن صوتها من فوق يناديه، انفتحت مظلة صدره، أخرجته من تلك الهوة السحيقة.

* * *

وجدها غائبة عن الوعي، يرفع الهواء طرف فستانها الشفاف، اقترب منها، أمسك وجهها وحركه، وجد لملمسها دفئًا، ونداوة، لم يستشعرهما في حياته من قبل، جلس إلى جوارها بعد أن شعرت به، تعرف عليها، هاله ما وجد منها من ود، ورغبة في التقرب إليه، ومعاملتها له كما لو كانت تعرفه منذ زمن طويل، بل كما لو كان حبيبها، لومها له على هجره إياها، أراد أن يصارحها بما جاش في

صدره عند رؤيتها، مشى إلى جوارها تائهاً، يود لو يمسك يدها، لو يلمس روحها التي أحاطته بظلها، وضخت فيه ماء الحياة بقوة، لم يستطع أن يمنع نفسه أكثر من ذلك، قبض كفها في كفه، عاد بها إلى بيتها، بدا له الطريق مفروشاً بأكاليل الزهور، والناس تطل من شبابيك البيوت، تلقي الزغاريد على رأسيهما، والأطفال يحملون في أيديهم الشموع الموقدة، يرتدون الملابس البيضاء، يصطفون في صفين ويمشون خلفهما.

* * *

في البيت تعرف على أبيها، الذي طلب منه ألا يخبرها بأنه ليس هو الذي تبحث عنه، حتى لا تتقصف مشاعرها فجأة، فهي ابنته الوحيدة، رباها منذ صغرها على حب كل ما حولها، فصنعت في خيالها دنيا خاصة بها، توقن من وجودها، هي وحدها التي تراها، وجدها شفافة إلى أقصى درجة، ومن الممكن أن تهلك إذا صدها بقوة أو عنف.

* * *

حكى لأبيها بالتفاصيل الدقيقة عن ظروف نشأته، أحواله المادية البسيطة، بيته المتواضع فوق الجبل، على أطراف القرية، عمله في المدرسة، رحيل أمه بعد مرض أذلّها، وأبيه الذي بدد كل شيء وراء شطحاته، أخيه الصغير من أم أخرى، ومسئوليته عن رعايتهما، ذكر له كل ما يمكن أن يستحلب العطف من قلب الصخر، أملاً في أن ينال موافقته ومباركته لحبه لابنته، لكنه جابه حائطاً صلداً بلا مشاعر، ضغط الرجل على عجزه، وعدم قدرته على تقديم ما يليق

بها، خلع عباءة الفن والرقة التي يرتديها، وتحول إلى تاجر، يبحث عن مشترٍ غني، لا يهمه مشاعر ابنته، سعادتها أو راحتها مع من تحب وترضى، بعد فترة صمت طويلة امتدت بينهما، استحلفه الرجل أن يتركها بهدوء حتى لا يؤلمها.

* * *

رجع تاركاً إياها، وعناصر الحب هاجت في صدره، شعر بالجفاف الذي خلفه الأب بمقابلته له يتحول أمامه إلى مراع نضرة، سهول، وديان، عيون ماء حارة، شم الزهور وهي تنبت في سيقان الأشجار الجرداء، تنمو باسمة، مبدّلة ألوانها، انفلت في مجرة كونية، تنتظم نجومها وكواكبها في مدار الحب حول قلبه، منشغلاً بها ليل نهار، أصبح يطيعها، ويتبعها أينما توجه طيفها.

* * *

التنين الحديدي المعلق في ملاهي "دريم بارك" صحا فجأة على ضفاف البحيرة الصناعية، الهادئة، الزرقاء، المتصلة بماء النهر المتحرك، عبر ثغرة صغيرة، بدت من بعيد ببخار الماء المتصاعد منها في أضواء الليل كبركان هادئ، يختلط دخانه بالسحاب، يؤرجح الأحلام والقلوب في موجه الناعم، والأرض تبدو منبسطة ومتدرجة، حتى إن الواقف إذا ترك نفسه وهو ينظر إلى البحيرة، يجد أنه ينزل تجاه الماء بسرعة، فكل اللعبات الخطرة تعلو وتهبط بالراكبين في غمضة عين، كانت الأحلام تتخذ إطاراً أسطوريًّا غريباً تراوده باستمرار، منذ انشغل تفكيره بإخفاء ما كان من أبيها معه، ترك الحب ينمو، بلا بحث عما سيؤول إليه في النهاية، ها هو

يخرج من قوقعته، يركب الملاهي لأول مرة في حياته، كأنه يريد شيئاً عنيفاً، خطراً، يقلب رتابته وهدوئه.

شعر وهو يمشي أن قدميه تمشيان فوق سقف لممر أو دهليز سحري تحت السطح، يؤدي إلى نقطة ما تُوصل بالشاطئ، أحس بكائنات تتجول فيه خارجة من الجبل الجيري، ذاهبة إلى الماء لتمارس حياتها، وتعود إلى مكامنها..

في كل خطوة يخطوها، بدأ يستشعر الأقدام الكثيرة، التي تتحرك هنا وهناك، أحياناً هادئة، وأخرى صاخبة، مسالمة ومتصارعة في آن واحد، شعر في نوبات عديدة بالخوف يهز أطرافه، يلجمه عن التفكير في محبوبته، التي تركها قهراً لظروفه التعسة، التي لم يخلقها، كلما ركب لعبة وتأرجح.

انفتحت عيناه بالدهشة والفزع في "بيت الرعب"، وهو يرى مخلوقاً ولِد للتو من إحساسه بالخوف، يخرج من تحت قدميه، هائل الضخامة والطول بدرجة لم يرها من قبل، أرجله وأطرافه لا عدد لها، جسمه ثعباني..

بعد أن استقر فوق الأرض، نافضاً عنه الغبار، عرفه من تلك الحكايات التي سمعها كثيراً.

* * *

اقترب التنين منه، والذعر انتشر في المسافة بينهما، تردد، لم يتحرك فالخلاء في كل جانب لا نهاية له، ومن أين له بسرعة يسبق بها ذلك الوحش الذي ظهر فجأة، ألجم التردد قدميه وقيده.. اقترب أكثر حتى لم تعد هناك مسافة بينهما. تاهت الحدود بين الواقع

والخيال، النوم واليقظة أصبحا في رأسه أمراً واحداً، لا فرق بينهما.

* * *

اندهش حين فاجأه الوحش باستكانته، وجده يطأطيء رأسه، يضعه تحت ظله.

استجمع شجاعته ولمس جلده، شعر أنه من جنس طيب، صعد على ظهره حين وجده مستكيناً، وهادئاً، كخادم في حضرة سيده.

تحرك به مقترباً من أحد الجبلين، المطلين على البحيرة مباشرة، صعد به إلى القمة، تركه فوق الجبل وعاد إلى مخبئه.

وقف فاتحاً صدره، يفكر في أمر ذلك الذي ظهر له دون مقدمات، وضع يديه في وسطه، أرسل بصره بعيداً، يستكشف المكان بالقرب من السماء الملونة، فثمة أضواء تخرج متناثرة من أماكن بعيدة، تتحلل إلى أطيافها، ترسم لونها في خارطة السحب البيضاء، مكونة قلوباً لها أجنحة خضراء، تتداخل مع بعضها البعض، وتسقط متعانقة في ماء البحيرة.

* * *

رأى الجبلين يكونان معاً شكل الرقم سبعة، يربطهما عنق الماء، الذي يتحول إلى شلال، ينساب من فوق التقاء ضلعي الجبلين، فرد ذراعيه، نظر إلى الشمس، دار حول نفسه، حرك رأسه في كل الجهات، تطلع إلى الجبل المقابل، دقق النظر..

وقعت عيناه على شيء صغير يصعد إلى أعلى، وجّهَ تركيزه نحوه، وجهه تلون بالانبهار، وملامح ذلك الصاعد تتضح شيئاً

فشيئاً، فالجبل المقابل تميل قمته نحو الجبل الذي يقف عليه بدرجة ما، بحيث تتضح الأشياء التي تستقر فوق قمته، صبر حتى يُسفر ذلك التحرك عن شيء يراه واضحاً..

شاهد رأساً ذا شعر متطاير يصعد الجبل، وقف واضعاً ظهر يده على جبهته، ليحجب الإضاءة المتحركة، أرسل سهاماً من جعبة عينيه نحوها، وجدها وصلت إلى القمة، ارتكنت إلى صخرة، ونظرت تجاه الماء.

طغت في ذهنه صورة محبوبته جمانة، تعرف على بعض ملامحها، شد تركيزه إلى ذاكرته، أيقن أنها هي، حاول أن يلفت انتباهها، راح ينادي عليها، انتبهت إليه، أشارت له بيدها..

وقفت من فورها، وهي لا تكاد تصدق نفسها، فقد تركها منذ فترة، محاولاً أن يجد حلاً، يخرجه من ذلك الألم، المسيطر على قلبه، فاختفى دون أن يخبرها أين يمكن أن تجده..

مرات كثيرة بحثت عنه ولم تجده، جابت الأرض طولاً وعرضاً، ها هو الآن على بعد خطوة واحدة، ولا تستطيع أن تصل إليه، ثمة ماكينات إلكترونية، وجسور حديدية تفصلها عنه..

- ما العمل؟!

سألت نفسها وهي تروح وتجيء، فالماء في الأسفل يفصلها عن حبيبها، نظرت إلى المنحدر، استطالت الوقت الذي ستقضيه في النزول دون النظر إليه، تطلعت إليه بعينين وجلتين، لهفتها جعلته ينظر إليها محدقاً وحائراً، يفكر في طريقة ما للوصول إليها.

* * *

خلع القمر المختفي بين الأنوار المبهرجة سكونه، ظهر، ألقى ظله على منظر الحبيبين، وهما يفكران في الانتقال لبعضهما، ضحك، وسطع في اتجاههما، قال:

- لن يهدأ القلبان حتى يلتقيا ويمزجا وهجهما!

* * *

في أسفل الأراجيح الطائرة كان القطار قد خرج من بطن الجبل، صعد تجاهه، وقف أمامه، نظر إلى الجانب الآخر، رأى جمانة والحيرة والشوق على وجهها، شاهد في عينيها رغبة، وإصراراً، في الوصول إليه بأقصى سرعة، خرج من قلقه، قال له سائق القطار:

- هل تريدها عندك أم أوصلك إليها؟

لم يرد، مسح على ظهره، يحثه على فعل شيء، أي شيء، المهم أن يلبي نداء قلبه.

ضغط السائق على البنزين، فارداً جسم القطار إلى أقصى ما يمكن، قذف ذيله، انطلق ساحباً جسمه في الهواء بين الجبلين،كخطاف سقط على حافة الجبل المقابل، واشتبك بالصخر تحت قدميَّ جمانة، التي أصابها الذعر، فلم تتمالك نفسها، وقعت على الأرض.

صنع السائق من جسم القطار جسراً معلقاً فوق ماء البحيرة، انعكس منظره في لون اللمبات الدوارة، مكوناً قوسَ قزحٍ مقلوبًا..

ابتسم له سائق القطار، أومأ قائلاً:

- هيا انطلق إلى فتاتك، لا تخف.

لم يكذب خبراً، أسرع إلى الجسر الذي قدمه له صديقه فجأة، يعبره مستنداً بذراعيه على الأعمدة المرفوعة لأعلى.. فقد راع صديقه الارتفاع الشاهق فوق الماء، فثبت نفسه بين الجبلين، على القضيب المخصص لذلك، جاعلاً ظهره لأسفل، ورافعاً عجلاته لأعلى.

* * *

وصل إليها، احتضنها بين دقات قلبه وقَبّلها، جذبها من يدها تجاه الجسر. خافت من دوران الماء تحت عينيها. نظر إليها نظرة طمأنتها، أزالت غشاوة الخوف من قلبها. تركت نفسها له.

مشيا فوق الجسر منسجمين، وعند منتصفه أعجبها المنظر من أعلى، والماء من تحتها ينساب رائقاً، ساحباً فزعها بعيداً.

جلسا، تاركين أرجلهما حرة، نظرا تجاه القمر البعيد، ويدّ كل منهما على كتف الآخر، أسند ظهريهما على عجلة من عجلات الجسر، تنفسا بعمق وارتياح:

- أخيراً وجدتك يا حبيبي.

- ...

- لن أتركك بعد الآن.

- وأبوك..؟!

وضعت أصابعها على شفتيه، تمنعه من الاسترسال، كان لديها كلام كثير، حول تلك الروح التي تهيم في الكون، بحثاً عن رفيق لها، متخطية حواجز كثيرة يضعها البعض.

* * *

لم يكن يدرك أن لديها تلك القدرة على الإقناع، والرؤية الدقيقة لمسائل شائكة، تحتاج إلى خبرة سنوات طويلة في الحياة، للإلمام ببعض خيوطها الرفيعة، التي لا تبين بسهولة..

تحدثت عن أمل الروح، ومراودته للوصول إلى الحبيب، خارجاً من بين الضلوع، يأتي بعده الهيام، الذي يسيطر على القلب، يدفعه بقوة إلى منتهى الحب، يصبح له نافذة، تطل على القلوب الهائمة، الباحثة في كل مكان عن حبها وتوءمها، إلى أن تجده، تتحد معه في عناق أبدي، تنطلق به في مدار خاص، يصل إليه المحبون الذين يعرفون الطريق إلى سعادة قلوبهم، والهائمون الذين ينهلون من ذلك الهناء.

* * *

في ذلك الجو البهيج، الصافي، وضع التنين الخارج من "بيت رعب" الملاهي يده تحت فكه السفلي، حرك أصابعه في لهو طفولي، وابتسامة صافية حركت الضحك من حوله، تخاذل الشر في نفوس الكائنات، والمكان ضجّ بفرح طاغ، رقص الجبلان رقصاً خفيفاً، تسرب الهدوء من هالة الحبيبين، الذين هزا أرجلهما، أرجحاهما في الهواء.

اهتزاز القطار في حركته عزف الموسيقى، وزعها في صعوده وهبوطه، على نوتة اللحن الأبدي الخالد، المسجل على أوتار القلوب.. وماء البحيرة امتلأ بألعاب راقصة.. أسماك، حيوانات مائية، طحالب،.. وركن الأطفال زُرع بالأسود، النمور، الغزال، الأرانب، وحيوانات لا مثيل لها، تلهو مع بعضها.. وقرص القمر

كبر، ارتدى أطياف اللون الأبيض السبعة، وهي منفصلة عن بعضها، وقف على حافة الماء في نهاية البحيرة بحجم السماء، مورداً وجنات الكائنات، شاهداً على الحب، الذي ذاب في كل ما حوله، وتدفق في قلب الكون.

* * *

"الفيوم - المعادي الجديدة"

صدر له:

1 - **غادة الأساطير الحالمة** - رواية - هيئة قصور الثقافة 1999.

2 - **نبع الذهب** - رواية - الهيئة العامة للكتاب 2000.

3 - **تفاحة الصحراء** - رواية

مركز الحضارة العربية - القاهرة 2001. طبعة أولى.

الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت 2007. طبعة ثانية.

4 - **هالة النور** - رواية - مركز الحضارة العربية 2002.

* حـاز:

* جائزة نادي القصة في الرواية 1999.

* جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة في الرواية 2000 / 2001.

الروائي محمد العشري

http://www.arabiancreativity.com/ashry.htm

المدونة

http://ashrynovels.blogspot.com

الإيميل

moashry@hotmail.com

خيال ساخن

رواية

محمد العشري

• كاتب من مصر

هل يمكن للعاشق أن يكون متجلّيا فاعلاً، يغير في ناموس الكون ونظامه، يدلف إلى أدواره، ويفهم طبيعة تكوينه؟ إن تجربة العشق التي يقدمها الروائي المصري محمد العشري في روايته الجديدة «خيال ساخن»، ليست تجربة عشق عادية، وإنما هي تجربة جديدة، مغايرة، تشذ عن السائد، وتبتعد عن المألوف، تتشكل وفق أساطير عديدة، أهمها أسطورة الذات الفردية، التي تظل في بحث عن نصفها المفقود منذ بدء الخليقة، ونشأة الكون، فإذا وجدته فإنها تصير إنسانا كاملا، بتعبير المتصوفة، بحيث يحقق أسطورته الذاتية، ويكون له قدرة علي النفاذ والفعل، وتحريك جسد العالم.

إن تجربة الحب في هذه الرواية شائكة، ترتبط بالمجهول، وجرح للعالم بأسراره، فمن خلال بناء خاص، جاءت رواية «خيال ساخن» بشكل يستعصي على التصنيف، فهي مشدودة إلي الواقع بخيوط قوية، ومشدودة إلى العجائبي والسحري بخيوط أقوى، وتقترب من التوجه العلمي في أحيان ليست قليلة. فهي رواية بحث الذات عن تحققها الجسدي والروحي، ووجودها، وعن شغف اقتناص أسطورتها الذاتية الخاصة التي تخلّدها، وذلك من خلال الخيال، الذي يلمس جسد الحقيقة العاري.

– د. عادل ضرغام

• صدر للكاتب أيضاً:

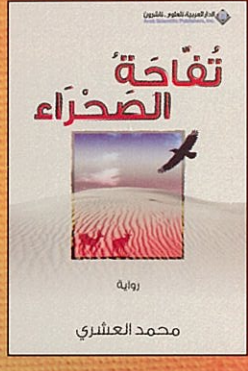

ISBN 978-9953-87-282-7
9 789953 872827

منشورات الاختلاف
revueikhtilef@hotmail.com

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت